ممدوح رزق

إعادة كتابة مصر

مقالات العام الأول من الثورة المصرية

جماعة ديوجين البحثية

ممدوح رزق

إعادة كتابة مصر

مقالات العام الأول من الثورة المصرية

جماعة ديوجين البحثية

إبريل 2012

مقدمة

خلال الثورة ، وفي غمرة انفعالاتي المتفاعلة معها كان هناك بداخلي ـ كالمعتاد ـ ما يرصد ويحلل ما يحدث ، ويؤكد على أن كل هذا كان ينتمي إلى طبقة سطحية من وعيي ..صوت خافت بعيد وغير واضح ولكنه لا يتوقف عن تأكيد وجوده ، وتأكيد الرسالة الثابتة التي يرسلها ويرسخها هذا الوجود : أنا لم أكن يائسا في الماضي ، وما عشته أثناء الثورة وبعد الإطاحة بمبارك ليس تفاؤلا ...المظهر المعلن الذي أتحرك به على الأرض ، وأجرب من خلاله الحياة وسط الآخرين وأصدّر بواسطته ما يبدو أنه موقفي من العالم ليس أكثر من إطار خارجي قد لا يدل على الإطلاق على ما يكمن وراءه بل قد يتعمد بتلقائية أن يضلل أو يمارس تشويشا لإعطاء صورا ضدية لهذا الماوراء ..في الداخل ليست هناك أحكام محسومة ونهائية ، ولا يوجد إيمان غير قابل للتعطيل والتشظي بل توجد نزعات معادية لكل مسار يريد استلاب الفكر والشعور باتجاه حتميات ..هناك انفلات متواصل من أسر التبعية والتعلق بالقيمة والركون إلى موقف محدد ..في الداخل لا يوجد تصديق لأي شيء أو بالأحرى محاربة لا تهمد ضد التصديق ..لا يوجد تفاؤل ولا يأس ..حُرمت من هذه الرفاهية منذ زمن كما يشير عنوان إحدى قصصي القصيرة ..هذا الصراع العميق الذي لا يهدأ ولا يتوقف لا يتعارض مع المظهر السطحي لممارسة الحياة ..لا يتنافر مع استبعاده أثناء هذه الممارسة ، ووضعه في خانة ما داخل النسيان مع الحفاظ على تذكره طوال الوقت ..معرفة وجوده الدائم حتى وهو مقصي ومستبعد أثناء الانخراط في متاهات اليومي وخياناته ..هذيان التفتيش عن الحماية الكاملة والخلاص الكامل فيما هو متاح ورفضه في آن واحد مع الاحتفال بالتمزق بين ما هو حاصل وبين ما يتعذر الوصول إليه أو حتى وصفه ..إنها البصيرة التي تسجل وتراقب الورطة بأكملها ، وتدفعك للتصالح مع كل ما تسفر عنه مشيئتها كابن بار يسعى لحل المعضلات الأخلاقية وتجاوز خلافاته مع التسلط العائلي بشكل ودي ..يختبر كافة دروب العيش العادية التي يُسمح له بها دون أن يكذبها ، ومع ذلك تشتغل ـ أي البصيرة ـ على كافة المعطيات والافتراضات بكل حالاتها وتجلياتها وتهيئها للحظة الكتابة .. لحظة اللعب بالأسئلة المتناسلة في جميع الاتجاهات ، وتوثيق الإلهامات اللامحكومة التي تتخطى التاريخ والدولة والإنسان والمكان والزمن بينما تحاول بقدر ما تستطيع الاستغراق والاندماج مع استبدادهم ..محاولة لتحويل الحياة الخاصة بجميع خبراتها المدمجة إلى عمل فني كرد مناسب ووحيد على عالم تحكمه الفوضى بحسب (نيتشه) .

ممدوح رزق

كتاب (25 يناير : التاريخ ..الثورة ..التأويل)
جماعة ديوجين البحثية
دار عرب للنشر والتوزيع
إبريل 2011

البوكسر

بعيدا عن حالة السخرية والتهكم التي سادت الأوساط الشعبية والإعلامية على أحد إعلانات الملابس الداخلية التي عرضت في رمضان الماضي والتي كانت تصف "البوكسر" بأنه مثل صاحبك فإن هذا النمط من الإعلانات يمثل تطورا طبيعيا جدا في استخدام "الوصفة" التي طالما اشتغلت عليها السلطة في مصر لفرض هيمنتها على الوعي الجمعي ..الثيمة التي حاولت تشكيل مفهوم "الوطنية" وفقا لآلية خادعة وتوجيهه نحو المسار الذي يخدم مصالح مجرمي النظام .

كان من العادي جدا أن تلاحقك إعلانات يظهر فيها عامل في مصنع وفلاح في حقل وطالب في مدرسة أو جامعة وبائع في محل وموظف في مصلحة حكومية وعلى وجه كل واحد منهم ابتسامة صافية سعيدة بينما عينيه تتطلعان إلى بعيد بفرح وتفاؤل بصحبة موسيقى حالمة وصوت دافيء يحدثك عن الناس "الحلوة" "الطيبين الذين يعيشون ـ رغم كل شيء ـ في بهجة وحب ويتجاوزون مصاعب الحياة بالتعاون والإخلاص ويؤمنون أشد الإيمان بأن مستقبلهم مشرق وبأن الأيام القادمة تحمل لهم خيرا عظيما ..هذه الحالة العاطفية التي كانت تخاطب ذهن الجالس أمام التليفزيون ومشاعره لتمرير دعاية للحزب الوطني مثلا أو دعوة للمشاركة في الانتخابات أو لدفع الضرائب أصبح في نفس الوقت من العادي استخدامها في إعلانات السلع الأخرى كالمحمول والمياه الغازية والسمن ومساحيق الغسيل والسيراميك ...إلخ .

لاشك أن هذا الأسلوب تمتد جذوره إلى ماضي غير قابل للحسم وغاية في الرسوخ لا يبدأ من الأشكال التقليدية لشعر المديح في الملوك والأمراء ويمر بأغاني تمجيد الزعماء وحكمتهم ولا ينتهي بالتخلص النسبي من الترويج الفج لمشاريع السلطة عبر إعلانات تسعى لنسج وهم يستبدل التقديس الساذج للحاكم بتثبيت صورة زائفة عن سعادة شعبه حيث "الناس طول عمرها مبسوطة" كما كان يردد دائما الديكتاتور في مسرحية "محمد صبحي" الشهيرة "تخاريف" .

يكمن الإرهاب النفسي الذي تمارسه هذه الإعلانات في الإيحاء بالتأكيد على أن عدم تصديقها يمثل خيانة للوطن حيث تدعي حيازتها الكاملة والحصرية لمفهوم "الوطنية" وما يمكن أن يعنيه الانتماء وحب مصر وكيفية المحافظة على استقرارها ..بالضبط مثلما كان يردح "عبد الحليم حافظ" لـ "خائن الاشتراكية" في أغانيه طمعا في رضى "عبد الناصر" وعصابته ..بشر مثلك يعيشون نفس عيشتك ويبدو عليهم أنهم يرتعون في نعيم ما أو أنهم على وشك دخول الجنة فكيف لا تصدقهم ؟ .. ! كيف تخون أحاسيسهم الجميلة وأحلامهم الوردية يا بن الكئيبة ؟ .. !أليس غريبا إذن أن يكون "البوكسر" مثل صاحبك وإن لم تصدق ذلك فأنت خائن للوطن ولصديقك وبالطبع لـ "بوكسر" نفسه.

ستربتيز 57357

السبب الوحيد الذي يبرر تعذيب الفرد العادي بالمشاهد المؤلمة للأطفال المرضى بالسرطان والقلب والعمى والشلل ، وبصور الفقراء والأيتام وأصحاب العاهات هو أن يكون هذا الفرد مسؤلا بشكل رئيسي ومباشر عن إصابة الأطفال بهذه الأمراض وعن بؤس المصريين الذي تلح عليه إعلانات الدعوة للتبرع من أجلهم ..تتجاوز هذه الإعلانات حد الابتزاز بل والإرهاب العاطفي والأخلاقي الفج إلى محاولة تثبيت واقع كاذب يحمي السلطة الحقيقية المسؤلة عن الكوارث الإنسانية التي تتاجر بها هذه الإعلانات ..تسعى لزرع يقين مضلل يهدف لقمع تاريخ سياسات الأنظمة الحاكمة المتعاقبة وتحالفاتها مع فساد رجال الأعمال على مدار عشرات السنوات والتي يعد "الإبادة الجماعية "أبسط وأخف وصف لما ارتكبته من جرائم.
لست ضد التبرع لأي مستشفى أو مؤسسة أو جمعية خيرية ..بالعكس ، ولكن فرق كبير بين الدعوة للتبرع وبين الاعتداء على مشاعري بمنتهى الابتذال والبرود بعروض استعراضية أقل ما يقال عنها أنها حقيرة يستخدم فيها الأطفال المرضى لجلب المال ..فرق كبير بين طلب التبرع كواجب إنساني وبين أن أعاقب دون ذنب على ما لم يكن لي يد فيه ..فرق كبير جدا بين إعلان يحترم كرامة المريض ومعاناته فلا يعريها ويكشفها بمنتهى السفالة كسلعة مضمونة الربح وبين عدم تسمية الأشياء بمسمياتها الصحيحة بألا يتم التركيز على مسؤلية الجناة الفعليين الذين تسببوا في كل هذا وعلى مسؤلية من اغتصبوا السلطة الأن وعدم فضح مدى تواطؤهم وتقصيرهم المتعمد في إنقاذ المرضى والفقراء والعاطلين عن العمل.
مهزلة جماعية قذرة يشارك فيها كل "النجوم : "الممثلون ولاعبو الكرة والشيوخ والإعلاميون وغيرهم ممن لا مشكلة عندهم في التعتيم على الحقيقة فحسب بل أن وجودهم نفسه يعتمد في استمراريته وازدهاره على هذا التعتيم الذي لا أحد يحاسبه ولا أحد يحاكمه ..الذي يبدو حتى هذه اللحظة أقوى من أي ثورة كأنه طبيعة خالدة تخص العالم نفسه ولا يمكن أن تتغير أو تتبدل مهما حدث.

الدولة الدينية

لا أجد تفسيرا لحالة الارتباك الجماعي التي تصيب معظم رموز الليبرالية المصرية على قنوات التوك شو كلما تم توجيه السؤال إليهم عن أسباب رفضهم للدولة الدينية ..من السهل القول أن هذه الحالة ترجع لقصور في الوعي الذاتي لدى هؤلاء الرموز مثلما من السهل القول أيضا أنها ترجع لنية متعمدة في إظهار ضعف الحجة وهشاشة الموقف لتثبيت مناخ عام مضاد للدولة المدنية ..لكن في جميع الأحول وبعيدا عن جميع المبررات التي تحتمل الصواب والخطأ أجد أن الأسئلة "الإرهابية " من عينة) :هل ترفض حكم الإسلام ؟ (!،)هل ترفض تطبيق الشريعة الإسلامية ؟ (!وغيرها التي يحاصر بها "مخبرو نظام مبارك "سابقا ، و "راكبو موجة الثورة "حاليا من الإعلاميين يحاصرون بها كل من يجلس أمامهم من "النخبة الليبرالية "لا أجدها تستحق رد الفعل "المتلجلج " والمتوتر الذي يبدأ بالدفاع عن الحكم المدني وينتهي به دون التطرق بشكل حاسم وقاطع لما يكمن داخل مصطلح "الدولة الدينية "من خطورة حقيقية .

الإسلام عقيدة على من يؤمن بها أن يمارسها على نفسه وليس على الآخرين ..بشكل أدق أن يمارس مفهومه الشخصي لها على نفسه وبالتالي فعلى أي جماعة من المسلمين تتقارب أو تتوحد مفاهيمهم عن العقيدة الإسلامية أن يمارسوها على أنفسهم وليس على بقية البشر من المسلمين والمسيحيين بالطبع ..على من يرى في نفسه أداة الله لتنفيذ أحكامه ومشيئته أن يمارس ذلك على من يرضى اعتباره كذلك وليس على من يعتبرون أن الدين علاقة بين الإنسان والإله لا دخل لأحد فيها ولا يحق لأحد انتزع لذاته صفات مقدسة أن يعين نفسه وصيا عليها حسب ما يرى وحسب مصالحه التي يرى في رؤيته الفردية للكتاب والسنة دعما وتبريرا لها .

مدنية الدولة ليست عقيدة وإنما دستور أخلاقي يسعى لحماية الإنسان من أصحاب العقائد سواء كانت دينية أو سياسية بوصفهم بشرا أي ليسوا أنبياء أوملائكة ..يحاول حماية قيم الحرية والتعدد والاختلاف من إجرام السلطة التي تدعي لنفسها أنها لا يمكن أن تخطيء طالما تستخدم لافتة تصادر سلفا أي حق في توجه أو انحياز مغاير ..مدنية الدولة تعني السعي للتخلص من قمع العسكر وللتحرر من إرهاب الشيوخ وهوسهم بالسيطرة على حياة الناس البسطاء الذين لم تتوفر لأي منهم المقدرة أو الحظ في نيل لقب "رجل دين "حتى يحمي فساده الشخصي بسياج نوراني.

من ضمن الحقائق التي أكدتها ثورة 25يناير أن الرئيس القادم لمصر لن تكون له أي هيبة ..المنطق يقول أنه سيأتي مجردا من أحلام الهيمنة ورغبات القهر بعدما أثبتت الأيام أن ميدان التحرير هو أسهل عنوان في الدنيا ، ولأنه لا أحد بلا أحلام هيمنة أو رغبات قهر فعلى الأقل ينبغي أن تكون مواجهتها شعبيا وهي معزولة ومقصية عن أسهل وأضمن مخبأ يمكن أن تلجأ إليه وتحتمي به وتبطش من ورائه بأعدائها ..ينبغي أن تواجه وهي ليست مختبئة في الدين .

السيناريو الأمريكي

جمعتني الصدفة بأحد المفكرين المصريين البارزين المعروف بتوجهه الليبرالي المعتدل ..كان لابد ألا تترك الأوضاع السياسية الراهنة في مصر مجالا لغيرها من الموضوعات في النقاش الذي بدأه بالتأكيد على أن السيناريو الأمريكي للمنطقة العربية ولمصر خاصة يواصل التحقق بمنتهى الثبات .. أخبرني أن لديه معلومات مؤكدة عن أنه في 2005كان هناك استعداد تام وفعلي لتوجيه ضربة عسكرية مشتركة بين إسرائيل وأمريكا ضد إيران ، وأن دول الخليج حينما علمت بالأمر طلبت من الرئيس "بوش "نقل القواعد العسكرية الأمريكية بهذه الدول إلى مصر خشية من رد الفعل الإيراني ..حينما تحدث "بوش "لـ "مبارك "في هذه المسألة ـ والكلام لا يزال للمفكر المصري ـ أبدى " مبارك "رفضه القاطع للفكرة نتيجة ما سيسببه ذلك من زيادة الضغط الداخلي عليه ..نفس الأمر تكرر بالضبط أثناء الحرب بين حزب الله وإسرائيل وتجدد معه رفض "مبارك "النفس السبب ..بعد مجيء "أوباما "إلى الحكم قرر أن "يمسح "حقبة "بوش "تماما بكافة أفكارها وتوجهاتها ومشاريعها وأن يبدأ في المنطقة سياسة جديدة تماما ..تقوم هذه السياسة ـ بحسب معلومات المفكر المصري ـ على إشعال ثورات في العديد من الدول العربية تقصي الأنظمة القديمة عن الحكم ثم يتم تسليم هذه الدول إلى "قبضة إسلامية "يتوفر فيها شرطان أساسيان :الأول أنها تكون عميلة للولايات المتحدة والغرب ، والثاني أنها تكون قادرة على إنقاذ الاقتصاديات المنهارة بهذه البلدان وإقامة اقتصاديات قوية بديلة.

انتهى كلام المفكر المصري البارز الذي رأيت أنني لا أمتلك الحق في التصريح باسمه وتعمدت ألا أناقشه في بعض النقاط التي وردت في حديثه ..اكتفيت بالرد عليه في شأن واحد وهو إذا كانت هذه هي عقيدة الإدارة الأمريكية في الوقت الحالي فإنها بالفعل تثبت غباءها مجددا وجهلها المضحك لأمرين جوهريين :جهل بطبيعة الشعب المصري ، وجهل بطبيعة الإخوان المسلمين ..الشعب المصري رغم كل ما يمكن أن يقال عن تدينه ـ وهو كلام قابل للأخذ والرد إلى ما لا نهاية ـ فإنه لا يمكن أن يقبل الخضوع والاستقرار تحت سلطة دينية أيا كانت ..أما الإخوان المسلمين على الرغم من امتلاكهم "غريزة العمالة "للغرب منذ نشأتهم إلا أنهم قادرين بمنتهى الكفاءة والغباء على إفساد أي مشروع استعماري خارجي لصالح أطماعهم الخاصة .

في نهاية النقاش سألت المفكر المصري سؤالا لم يتمكن أيا منا من الإجابة عليه :ما الذي يمنع ـ بافتراض صحة السيناريو السابق ـ أن يكون الهدف من وراء كل هذا هو الصراع في حد ذاته .. حرب الكل ضد الكل في أشكال دينية وقبائلية وأمنية ..لماذا لا يكون الغرض هو عدم الاستقرار الذي يمكنه أن يسمح بتحويل المجتمعات إلى أشلاء ممزقة يمكن معها ـ ولو بعد سنوات طويلة ـ خلق أطواق نجاة لقوى الرأسمالية العالمية التي تواجه منذ سنوات أزمات اقتصادية متلاحقة لم تسعفها الحلول العاجلة حتى الآن ؟ ..لماذا لا يكون الصراع هو الحل في معركة البنوك والبورصات والشركات الكبرى ضد البشرية كلها ؟!

التعاطف مع السرير

إذا كان هناك من لا ينكر حق التعاطف ـ ولو في إطاره اللحظي العابر ـ الذي شعر به بعض المصريين حينما رأوا مبارك يدخل قفص الاتهام على سرير طبي فما هو المنطق الذي يبرر إنكار حق الشماتة التي شعر بها "مصريون آخرون "حينما رأوا نفس المشهد ؟ ..المصريون الذي لدى كل واحد منهم أكثر من "تار بايت "مع هذا الرجل ونظامه ..ما هو المنطق الذي ينكر حق التشفي وعدم الاكتفاء والانتظار المتلهف للقصاص ؟ ..بعيدا عن مناقشة الدافع النفسي الذي يقف وراء تعمد البعض وضع القانون في مواجهة تسلط فكرة الانتقام عند ضحايا النظام السابق فمن الذي لا يعرف أن القانون كأداة للعدل هو أيضا حقيبة الحاوي التي تستخدم أدواتها للهروب منه ؟ ..الذي يمكن أن يمنع العدل من التحقق أو يعمل على تأجيل الوصول إليه في محاكمة مبارك وأعوانه ليس القانون وإنما الدعم السياسي والأمني لألاعيب ومراوغات محامي قتلة الثوار أو تواطوء القضاء مع المجلس العسكري أو ما تفرضه حسابات الخارج ومصالحه ..من هنا يبدو الانتقام كشعور جمعي غير قابل للمحاسبة أو اللوم وليس في حاجة للتبرير ..يعد رد فعل منطقي على مهازل متواصلة ولن ينتهي إلا بنهايتها ..لن أقول أن من يعادي هذا الشعور أو هذا النمط من التفكير يستحق العداء وإنما يستحق الإهمال والتجاهل التام ..يكفيه الانفصال عن وعي مشحون بتراكم من القهر أدرك معه المصريون أن الثورة تعني أكثر ما تعني أن تحقيق أهدافها يتطلب الضغط اليومي وبكافة الوسائل بعد أن أثبتت الأيام أن لغة الشارع هي الضمان الوحيد لحماية الروح التي ولدت في العالم يوم 25يناير .

إذا كان التعاطف رغبة طبيعية فالرغبة في الانتقام أكثر طبيعية من أي شيء وإذا كان مشهد السرير في القفص مؤثرا فهو لن يقارن بأي حال من الأحوال بأبسط مشاهد الفقر والتعذيب والقمع التي شكلت تاريخ المصريين في الثلاثين سنة الأخيرة ..إذا كان الوطن العربي شهد في 2011أكثر من ثورة فالشعب المصري ـ وحده وليس جيشه ولا جهازه البوليسي ـ هو الذي أدخل طاغيته وحاشيته قفص المحاكمة أمام الدنيا كلها وهو الذي ـ رغم الإخوان والسلفيين ـ يعرف ما هو العدل وما هو العقاب الذي ينتظر من سيحرمه منه .

تفاصيل الموت

كل يوم يمر بدراجته على نفس المقهى وهو في طريقه إلى الجامع ..ينادي في الجالسين بابتسامته الممطوطة وسط لحيته الكثيفة " :ميعاد صلاة العشا يا جماعة ... "
أثناء الصلاة يكون سعيدا ..يؤمن بأنه يفعل ما هو أكثر من صلاة عادية أو أنه يؤدي صلاة مضاعفة ..أنه يمتلك الكثير في كل صلاة قام بها كل شخص نهض من على المقهى وذهب إلى المسجد بعد مروره بالدراجة وسماع تنبيهه ..في كل صلاة لم يؤديها كل من ظل جالسا في مكانه.
شيء ما جعله يقع اليوم من فوق دراجته ..شيء جعله يتألم ولكنه لم يكن الألم الذي يمنعه من الوقوف وركوب الدراجة مجددا ومواصلة الطريق نحو الجامع ..في هذه الصلاة كانت سعادته أكبر ..كان فرحا للغاية بوجع السقوط الذي مثّل له مكافأة عظيمة ..جعله أكثر يقينا بجدارته بهذا الجهاد اليومي المقدس في سبيل الله ..ما كان يزعجه فقط ويحاول تخليص نفسه من آثاره هو التذكر الذي كان يلح عليه رغما عنه للناس الذين نهضوا من المقهى وساعدوه على النهوض وظلوا بجانبه حتى تأكدوا من سلامته ثم عادوا للجلوس ثانية .

بلطجة النخبة

إذا حاولنا التفكير في مقارنة ما بين الخطاب الذي تنتجه رموز النخبة السياسية بتوجهاتها اليسارية أو الليبرالية بعد الثورة وبين الآخر الذي تنتجه النخبة ذات التوجه الديني أتصور أننا سنعجز عن تفادي الاصطدام بواقع ذو دلالة هامة .. تتلخص ملامح هذا الواقع في عدم انشغال كلا الخطابين بالهذيان الناجم عن تبدل المواقف أو تغير الانحياز أو على الأقل تبني التهدئة واستعمال المرونة المحسوبة التي ترتكز على أسس من الحسابات الذاتية .. فرموز اليسار والليبراليين الذين نسبوا ثورة **25** يناير لأنفسهم باعتبارهم أعداء النظام قبل سقوطه وأكثر من قاموا بالتنظير والتمهيد للتحرك الشعبي الذي تم تحت قيادتهم ، وأنهم الأكثر قدرة على استيعاب التباين والصراع الطبقي والديني بعد الثورة ، وأكثر من يمكنهم تطبيق المفاهيم العادلة للمواطنة كحقيقة لا جدال ولا تراجع عنها .. هذه الرموز لا يعنيها الحلول الوسط التي قاموا بطرحها في الصحف وعلى الفضائيات بين الشعب والنظام قبل سقوط مبارك ـ نفس الدور يمارسونه الآن بين المجلس العسكري والثوار ـ ولا يعنيهم عدم وجودهم في الشارع في لحظات القتل الحقيقي وفي لحظات الاعتصام الحقيقي وبالضرورة سيمكنك العثور عليهم على الشاشات يتحدثون عن النسيج الواحد للوطن أو عن ضرورة حماية مصر من الفتنة بين الشعب والجيش أو يطالبون ـ بمنتهى الرقة والخجل ـ بتنفيذ مطالب الثورة وحمايتها من أعدائها في نفس الوقت الذي يفقد أحدهم حياته بسبب هجوم على كنيسة أو يتعرض لجروح بالغة أو كسور أو اختناقات أثناء مسيرة سلمية أو يفقد وعيه من شدة الحرارة أثناء تمسكه بالوجود بالميدان للحفاظ على الروح التي زرعتها الثورة هنـــــــــــــــــــــــــــاك.

على جانب آخر فرموز التيارات الإسلامية الذين كانوا أكثر الداعمين لحكم مبارك سواء عبر التأييد المباشر أو المواجهات والصدامات المزيفة كانوا أكثر البشر التصاقا بالثورة ـ خلال أيام النظام الأخيرة وبعد سقوطه على الفور ـ وكالعادة تفوقوا على أنفسهم في استخدام العنف والتهديد والتحريض ضد أعدائهم الذين هم أعداء مصر والإسلام بالطبع .. !! أما عن تحريك أتباعهم في الشارع لخوض المعارك باسم لافتاتهم في الوقت الذي ينعمون فيه برفاهية الأمان الذي يعطيهم حرية الدعاية لأنفسهم كمناضلين ومدافعين عن الله ورسوله عبر القنوات التليفزيونية فحدث ولاحـــــــــــــــــــــــــرج.

ما هي الدلالة الناجمة عن كل هذا الرقص الجماعي المتعدد الأشكال والمتنقل من حفلة لحفلة ومن زمن لزمن ؟ .. كل وقت مرهون بمعطياته وكل معطى له شروط والشروط يلزمها مهرج بارع يحسن تقديرها ويحسن الاستفادة منها دون الالتفات لأي ذاكرة قد تختزن أي ماضي .. يبدو إذن أن تكاثر الحكماء في مصر المخضرمين في عقد الصفقات يتم بكفاءة أشرس من قدرة أي مراقب على الاستيعاب .. من استطاعته التنبوء بما يمكن أن ينتهي إليه التسابق لكسب ود ورضى الدبابة ذات اللحية الكثيفة.

حنجرة بلوجر وعبيط تويتر

بعد الإطاحة بمبارك بدا أن هناك سلطة ما تخطت مرحلة ترسيخ الدعائم وأصبحت على موعد مع الحصول على الجائزة الكبرى .. لكن صعود هذه السلطة لم يكن مرتبطا بالسلوك النضالي لأفرادها في مقابل الانهيار التدريجي المتسارع لحكم مبارك فحسب بل استمد هذا الصعود قوته ـ ربما على نحو أقوى ـ من قدرة أسماء محددة لا تتجاوز أصابع اليد على توظيف المواجهة مع النظام في إقصاء وهدم شركاء القتال ضد اللصوص والعسكر .. لن يكون مجديا أن تحاول رصد سمات تلك السلطة ومظاهر حضورها عبر تجربة مدون شارك في ثورة **25** يناير وكتب يومياته عنها بعد أن قضى السنوات الأخيرة متنقلا بين المظاهرات والاعتصامات والوقفات الاحتجاجية .. هذا النوع يمثل النموذج التقليدي للمدونين وتعد الفئة التي ينتمي إليها بمثابة الأغلبية الشعبية داخل العالم التدويني .. آليات السلطة تتجلى عبر تجربة مدون قام بكل ما سبق ليس سعيا وراء قيم الحق والخير والجمال ! بل أيضا وراء زعامة نظام الحكم الافتراضي الذي حقق انتصاره ـ المبدئي ـ على أرض الواقع في **11** فبراير .. بقليل من المتابعة وقليل من التأمل وبكثير من الصبر يمكن لأي شخص إدراك وجود ما يسمى بشريحة النخبة من المدونين المصريين ، وأتصور أنه من السهل جدا تحديد الملامح المشتركة بينهم التي يفتقدها عامة المدونين كليا أو جزئيا والتي حرمتهم بالضرورة من أن يكونوا نخبة أو بشكل أدق من امتلاك سلطة قيادة حافلة التدوين المصري عبر بلوجر وتويتر .. ليس للأمر هنا علاقة بالتاريخ أي بمن سبق الآخر في بدايته التدوينية كما أنه ليس له علاقة له بأهمية وعمق ما ينشر في المدونات بل تبدو المسألة محسومة بأنها خاضعة أولا وأخيرا لبراعة قمع وتخوين الآخرين والقدرة الفائقة على السب والسخرية ضد كل من يجروء على الاختلاف.

يبرز في هذا الصدد مثالان واضحان للغاية : الأول هي " حنجرة بلوجر " المدونة والصحفية والمذيعة التي عرفت قبل الثورة من خلال مدونتها بأنها لا تمتلك سوى صوتا عاليا فحسب .. حدة جوفاء في الخطاب تحت لافتة مناهضة نظام مبارك وتعاليا عدائيا ومضحكا ضد كل من يمتلك وجهة نظر مخالفة لها حتى لو كان أكثر كرها لمبارك وأكثر رغبة في إسقاط نظامه .. بعد تولي المجلس العسكري حكم مصر اتخذت هذه الحنجرة موقف الملاك الحارس الذي أخذ على عاتقه الدفاع بإخلاص عن الجيش وعن كافة ممارساته ضد الثورة .. عينت نفسها وصية على الثوار والمدونين والنشطاء وراحت بكل ما تمتلك من طاقة هيستيرية هائلة تبرر كافة خطايا المجلس العسكري تجاه المصريين بل وصل بها الأمر إلى التأكيد على وجود مؤامرة خارجية هدفها إشعال الفتنة بين الشعب والجيش ، وأن كل من ينتقد المجلس العسكري هو عميل وخائن وأحد المكلفين بإنجاح هذه المؤامرة .. لعل أقذر ما قامت به هذه الحنجرة هي تأييدها المتشنج لمحاكمة المدون " مايكل نبيل " أمام محكمة عسكرية والذي حكم عليه بالسجن بعد ذلك بعد أن كانت تملأ الدنيا ضجيجا برفض محاكمة المدنيين عسكريا ولكن كان من الواضح أنها لم تكن تقصد كل المدنيين .. ! في الفترة الأخيرة وبعد أن اتضحت النوايا الحقيقية للمجلس العسكري ، وتكشفت بمرور الوقت خطط الجيش لقتل الثورة ـ لمن لم يكن يفهم أو يريد الاعتراف في البداية ، وبعد بدأت التحركات الشعبية تتزايد ضد المجلس العسكري حتى عادت المظاهرة المليوينية من جديد لإنقاذ الثورة من أيدي الجيش وعادت اعتصامات ميدان التحرير والميادين الأخرى في

العديد من المدن والمحافظات للضغط على المجلس العسكري لتنفيذ قرارات الثورة أيقنت " زعيمة التدوين " أنه من الضروري أن تتحرك بعيدا وبالتدريج عن موقعها القديم المساند للجيش وبدأت تكتب فصولا جديدة أكثر إثارة للشفقة في مسيرتها " الحنجورية " ، وعلى هذا أصبحت ترى ـ فجأة ـ أن المجلس العسكري " مطالب بإيضاحات " للشعب عن سياسته بعد الثورة ثم أصبح عليه أن " يسرع في تنفيذ مطالب الثوار " إلى أن أصبح في النهاية " جديرا بالثورة ضـــده!!!

المثال الثاني يعد معجزة بكل المقاييس : مدون معروف اكتسبت مدونته شهرة واسعة منذ سنوات من خلال نشر فيديوهات التعذيب في أقسام الشرطة ومن يتابع مدونته بشكل عام وتدويناته على تويتر بشكل خاص سيعرف على الفور أنه يعاني من مشاكل نفسية متراكمة حولته إلى آلة توزيع للشتائم .. شخص مؤرق باستعراض حصيلته الوفيرة من البذاءة في المطلق للدرجة التي يشعرك بأن تويتر بالنسبة ليس سوى حارة ضيقة يجلس على عتبتها مثل " النسوان " لاصطياد الوافدين ومعاقبة كل من لا يعجبه شكله أو كلامه .. كان من الواضح في الفترة الأخيرة وتحديدا بعد الثورة أن ظهور أسماء جديدة من المدونين يكتبون آرائهم عن الحال المصري عبر تويتر مثل بالنسبة له اعتداء على كرامته بصفته " النجم الكلاسيكي المخضرم " للتدوين المصري والزائر المقيم في الصحف الأجنبية والفضائيات العربية .. لم يكتف المدون المعجزة بسب هؤلاء بكل ما لذ وطاب بل وأصدر إليهم أمرا مباشرا بأن عليهم الصمت والتعلم منه أولا قبل أن يفكروا أو يكتبوا شيئا !! وبالطبع لست في حاجة للتذكير بأن هؤلاء الموجه إليهم هذا الأمر ليسوا من فلول الحزب الوطني ولا من أنصار مبارك ولا من قواد الثورة المضادة بل بشر عاديين شاركوا في ثورة **25** يناير وما زالوا يعملون على تحقيق أهدافها.

خلال الأحاديث والمقالات والبرامج التي تتناول ما يهدد الثورة تبدو السلطة التي يمثلها هذان النموذجان بعيدة بدرجة كبيرة عن مركز النقاش .. عن التناول الذي تستحقه باعتبارها من أكثر التهديدات شراسة .. الهامش الذي أخذ كل مزايا الهامش واستفاد منه لأقصى درجة وحان وقت تحوله إلى متن تحت غطاء الثورة وشرعيتها .. الذي لا يجب أن يقف في طريقه أو يعطله أي شيء حتى لو كانوا رفاق الهامش أنفسهم .. رفاق الهامش الذين عليهم الرضى بالقدر الذي حرمهم من الصوت العالي و القدرة على التخوين والإرهاب حتى ولو كانوا مصريين.

الثورة كجزء من تاريخ الأدب البوليسي

لا شك أن الحنين سيكون دافعا أساسيا في اتفاق ثلاثة أصدقاء على إصدار كتاب عن " تاريخ الأدب البوليسي في العالم .. " بالطبع لن يخلو الأمر أيضا من حفر ثقب في الجدار العنصري للهامش بحصاره الثقافي والجغرافي لتمرير" سلعة " تمتلك أسباب الرواج التجاري داخل السوق القاهري أكثر مما تمتلكه مجالات وموضوعات كتابية أخرى .. لاشك أيضا أن الارتباك سيكون عنصرا حاسما في تحويل المسار الذهني لدى هؤلاء الأصدقاء من التحضير لاسترداد الشغف الطفولي ومغامراته الآمنة إلى ترقب مستقبل المصريين بعد اندلاع مفاجيء لثورة شعبية .. خلال الثمانية عشر يوما جلست أنا والباحثين " حسام شادي " و "مجدي عبد الهادي " كثيرا على نفس المقهى الذي شهد مناقشاتنا عن كتاب الأدب البوليسي وترتيبنا لخطة العمل به ، ولكننا لم نتحدث إطلاقا عنه إلا مرة واحدة في بداية الأحداث كي نؤكد اتفاقنا الذي لم نكن في حاجة للتصريح به على تأجيل كتابته .. لكن بعد شهر تقريبا من خلع مبارك ، وحينما قررنا العمل في كتاب عن الثورة ، وقبل أن نضع أي تصور مبدئي له شعرت أن روحي تستعيد حالة الحنين التي عشتها أثناء التفكير والإعداد لكتاب تاريخ الأدب البوليسي .. الحالة التي تراجعت لعمق غير محسوس في ذاتي طوال فترة الثورة ثم عادت إلى موقعها القديم لتسترجع سلطتها السابقة على وعيي .. جعلتني أعتبر الثورة والكتابة عنها مغامرة طفولية تستحضر تاريخا شخصيا وعاما لا حدود له من الالتباس ، في نفس الوقت الذي تخوض بأفكارك ومشاعرك جدلا شيقا مع تفاصيلها ، وتحقيقا مثيرا في معطياتها الراهنة والمتلاحقة وما تنتجه من هواجس تؤشر لمستقبلها ..استكشاف حميمي لذاكرة غير مسبوقة لما سيتم اعتباره ذات يوم ماضيا جديرا بالتذكر ، وباتخاذ كافة الخطوات الممكنة لحيازته ثانية وعيشه من جديد .. أصبح **25** يناير بالنسبة لي مرحلة هامة من تاريخ الأدب البوليسي في العالم.

كنا ندرك تماما أنه لن تمر فترة طويلة بعد الثورة إلا وسيجتاح المكتبات طوفان من الإصدارات عنها .. تجاوز السمة الغالبة المتوقعة لهذه الإصدارات مثّل انحيازا بديهيا للحظة الأولى التي بدأ معها التخطيط للكتاب .. ارتبطت البصمة الخاصة إذن بتخطي الاستعراض التقليدي للحالة المصرية قبل الثورة وتقارير الفساد السياسي والاقتصادي والأمني المتداولة والتوثيق المتشابه ليوميات ميدان التحرير دون التغاضي بالتأكيد عن الحاجة إليها .. محاولة توسيع الرؤية في أكثر من اتجاه لخلق احتمالات أقوى للعثور على فكرة أو زاوية تناول مبتكرة .. لم يستغرق الوصول لقرار تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء وقتا طويلا .. كان من الواضح أن ما يجمعنا عن الثورة ـ رغم الاختلافات الفكرية بيننا ـ أكثر بكثير مما يفرقنا ولكن كان تخصيص مساحة مستقلة لكل كاتب ضرورة حقيقية لإعطاء كل بصيرة حريتها في التعبير عن انشغالها الخاص .. مناقشة منفصلة للجانب الذي يعنيها أكثر من غيره للثورة وبواسطته تتمكن ـ أي البصيرة ـ من نسج صورة رمزية لطبيعة موقفها من العالم .. بالطبع كان من شأن ذلك أيضا تحقيق قدر من الإحاطة المفاهيمية للثورة من خلال كولاج بحثي يتآلف من ثلاثة أدوات تشريحية مختلفة.

في الجزء الأول من كتاب " **25** يناير : التاريخ .. الثورة .. التأويل " والذي حمل عنوان "

ثورة مصر الدائمة من **1795** إلى " **2011** لـ " مجدي عبد الهادي " لم يكن الهدف التأريخ بمعناه التقني بل إثبات التراكمية التاريخية ، وكذلك التركيز على أدوار القوى الاجتماعية المختلفة في ثورات مصر المتكررة في العصر الحديث ضمن مسيرة التحرر الوطني ، وإبراز مدى نجاحها من عدمه .. أما الجزء الثاني والذي حمل عنوان " هل سقطت جمهورية يوليو ؟ " لـ " حسام شادي " فبخلاف التوثيق التاريخي لثورة **25** يناير كان هناك التساؤل الذي لا يخلو من أمنية حول سقوط جمهورية يوليو ، وشرعية حكم العسكر ، وما يمكن أن يؤدي إليه هذا السقوط من تحديد لملامح مصر المستقبلية .. أما الجزء الثالث الخاص بكاتب هذه السطور والذي حمل عنوان " الثورة والخيال المابعد حداثي " فقد ناقش مفهوم الثورة وفقا للإلهامات التي طرحتها ما بعد الحداثة خاصة فيما يتعلق بنزع الثقة عن النظريات والأيدولوجيات التي وعدت بإمكانية تفسير العالم وتغييره ، وأيضا تفكيك السلطة بواسطة لانهائية التأويل ، وارتباطها بعدم اليقين مضفرا ذلك بيوميات شخصية عن التفاعل النفسي والتأملي اللامحكوم مع أحداث الثورة.

لا تشغل كثرة الإصدارت عن الثورة حيزا كبيرا من تفكيري .. بالعكس ربما لا أجد مشكلة في أن يصدر كل مصري كتابه الخاص عن الثورة حتى لو كان بغرض الاستفادة التسويقية .. لكن ما أتصور أنه الجدير بالانتباه حقا هو ما ساهمت فيه هذه الإصدارات من تأكيد على رسوخ الواقع الإقصائي الذي يحكم الحياة الثقافية في مصر ، والذي لم تهتز شعرة في جسده بعد الثورة ويبدو أن هذا بالفعل حدث لا يجب انتظاره ؛ فالاحتفاء الإعلامي ـ السطحي أصلا وغالبا ـ بهذه الإصدارات مارس عماءه كالعادة بكفاءة تامة حيث جعل اسم الكاتب وما يستدعيه من شهرة هو معيار الانتقاء من أجل تسليط الأضواء الاحتفالية على كتابه عن الثورة وبصرف النظر عما أتى به مضمونه من جدية أو اختلاف عن كتب أخرى .. يمكن القول ببساطة أننا بعيدون جدا عن مرحلة الحصول على نتائج " ثورية " سواء فيما يخص الثورة نفسها أو فيما يخص الإصدارات التي تناولتها .. هذا ما يثبته غياب النقاش " المثابر " عن كتب الثورة في ظل الانهماك الحاد والثقيل في مراقبة مستقبلها .. في النهاية كانت هناك ثورة وبالطبع كان يجب أن يكتب عنها.

فرح نبذ الطائفية الشعبي

في نفس اليوم الذي قررت فيه المشاركة بالكتابة في يوم التدوين والزقزقة ضد الطائفية والتعصب قرأت بالصدفة نوت لأحد المسيحيين على الفيس بوك يحكي عن تعرّض زوجته ـ الغير محجبة وطفلته الصغيرة ـ الغير محجبة أيضا ـ لاعتداء بمادة كاوية على يد أحد السلفيين بمحطة المترو .. حكى أيضا عن الضابط الذي رفض عمل محضر بالواقعة حينما ذهبت الزوجة إلى نقطة الشرطة قائلا لها " :معلش جت سليمة وهانبقى ناخد بالنا .. "وسط كل تعليقات الغضب الاستنكار والإدانة التي كتبها الآخرون ردا على هذا النوت برزت ردود متعاقبة لأحد السلفيين الذي لم يكن يعنيه ـ كالعادة ـ رفض ما حدث والمطالبة بالقصاص من المعتدي بقدر ما كان يعنيه عدم نسب هذا الفعل إلى الدين الإسلامي البريء من مثل هذه الأفعال ..في مقابل كل كلمة تعاطف مع الضحية وابنتها كانت هناك سطور طويلة من الهجوم على من يريدون المساس بالإسلام وتشويه صورته عن طريق نشر مثل هذه الوقائع إن كانت صحيحة أصلا .. !!أهم نقطتين في ما سبق كما أرى هو رد فعل ضابط الشرطة ورد فعل السلفي على الفيس بوك ..السلفي لا ينظر إلى الإنسان بقدر ما ينظر إلى الدين .. في يقينه أن الدين هو الذي يحتاج إلى الحماية وليس البشر ..الدين هو الكيان المهدَد الذي ينبغي الدفاع عنه وليس أي كيان آخر ..الدين هو الجسد الضعيف الأعزل المعرّض طوال الوقت للأذى ، وهو الذي يشعر بالألم والإهانة حين تلقى عليه مادة كاوية وهو يمشي في الشارع .. !!على جانب آخر فالشرطي هو السلطة التي لا يعنيها البشر أيضا بقدر ما يعنيها مصالحها وحساباتها الخاصة .. عقيدة الشرطي تفرض عليه سلوكا معينا يتسق مع أهداف السلطة ، والتي لا تتعارض مع حماية امرأة وطفلتها من اعتداء مجرم فحسب بل ويمثل هذا الاعتداء خدمة حقيقية لها ، وبالتالي على السلطة أن توفر المناخ اللائق له .

لست ضد دعوات الكتابة أو التظاهر ضد الطائفية والتعصب ولكنني في نفس الوقت لا أعتبرها أكثر من مجرد تأدية واجب يفرضه ضمير جماعي ..محاربة الطائفية والتعصب عنوان خاطيء ومخادع من الأساس لا يقود التورط في تصديقه والمبالغة في الإيمان به إلا إلى مزيد من العماء ..التعصب الديني حقيقة خالدة كانت وستظل في كل مكان وزمان ، والأهم أن السلطة التي ترعى وتدعم هذا التعصب هي الحقيقة الأكثر خلودا ..إذا كان لابد من كتابة تتخذ موقف المواجهة فلابد في تصوري أن تكون ضد هذه السلطة أكثر ما تكون ضد المتعصبين أنفسهم الذي سينتهي العالم قبل نهايتهم .. الكتابة الأجدى ضد مسؤلية أي نظام حاكم عن لعبة الطائفية التي يستفيد منها ويحقق أغراضه من تدبير تحركاتها ..ضد النزع المتعمد للحماية عن الأبرياء والتخطيط لقتلهم باستخدام المتشددين دينيا ..محاولة لوضع مشكلات تعرقل ولو بتأثير محدود الخطوات الثابتة للسلطة .

لا أحتاج للتأكد من صحة حكاية المسيحي الذي تعرضت زوجته وطفلته للاعتداء ..لدي ماضي هائل لا تعد فيه هذه القصة أكثر من نقطة في محيط ..أيضا لا أحتاج للتأكيد على التناقض الهزلي بين يقين المتعصبين بالكمال الراسخ للعقيدة الذي يمنع من أن ينال منها أي شيء ، وبين الهيستيريا التي تصيبهم كلما صادفتهم حادثة مماثلة وتجعلهم يمارسون كل أنواع التشنج في الدفاع عن هذه العقيدة كأنهم في حالة حرب بالسيوف والرماح ضد الكفار ..ما أحتاجه هو التأكيد على أن شعارات مثل " لازم يعيش الهلال مع الصليب "تبدو كأغنيات صاخبة داخل فرح شعبي تغطي دون قصد على أصوات رصاص لا تطلق أبدا في الهواء .

بندقية العوا

إن لم تخني الذاكرة ففي نفس الحلقة التليفزيونية من برنامج "القاهرة اليوم "التي دعا فيه "محمد سليم العوا "للرئيس المخلوع "مبارك "بالصحة وطول العمر حينما تطرق الحديث بينه وبين " ياسر رزق "لموضوع)الفراغ المفاجيء لكرسي الرئاسة (، في نفس هذه الحلقة أجاب "العوا " على سؤال "عمرو أديب "عن لماذا يصب الله غضبه على أهالي)الدويقة (الفقراء والبائسين ولا يصبه على اللصوص الكبار من الأغنياء أجاب "العوا "بأن الله عاقب أهالي الدويقة بالانهيار الصخري على هتافاتهم لهؤلاء اللصوص ودعمهم لهم سواء من أعضاء مجلس الشعب أو رجال الأعمال الفاسدين .

بعدها بفترة ظهر "العوا "ليعلن للعالم كله بأن الكنائس في مصر ليست سوى مخازن للأسلحة وأن الأقباط يمثلون)امبراطورية (موازية للجمهورية المصرية .

في ظل الخضوع لقمع النظام السابق يمكن تفهم وقبول العجز عن قول كلمة حق واضحة ومباشرة تعطي لجرائمه بأذرعه الرئاسية والحكومية والحزبية والأمنية توصيفاتها الصريحة ..لكن أن تدعو لرأس هذا النظام بالصحة وطول العمر ، وتحمّل الفقراء الذين دفنوا تحت الصخور في غمضة عين مسؤلية الإبادة الجماعية التي حدثت لهم مثلما كانت تحدث في مصر كلها ثم تقوم بالتحريض ضد المسيحيين ودور عبادتهم ـ الأمر الذي لا يزال يساهم في قتلهم وإحراق كنائسهم حتى الآن ، فهذا بالتأكيد ليس جزءا من العجز الذي تفرضه السلطة عليك وإنما يصبح دون شك جزءا من الاستفادة من هذه السلطة التي تدفعك مصالحك الشخصية معها للعمل كأمين شرطة أو مخبر يرتدي ثوب المفكر الكبير وصاحب المشروع الحضاري الإسلامي العظيم ..لو لم يدعو "العوا "المبارك ، ولو لم يجعل ضحايا الدويقة سببا لما حدث لهم ، ولو لم يحرض ضد المسيحيين ..لو لم يفعل أي شيء من هذا ما واجه مشكلة مع أحد أو جهة ما تنتمي للنظام السابق ..لم يكن مجبرا تحت إلحاح وضغط قبضة أمنية لممارسة خطايا من هذ النوع وإنما كان هذا هو دور "العوا "لا أكثر ولا أقل ..وظيفته الحقيقية في المجتمع المصري التي لم يكن يؤديها دون مقابل بالتأكيد .

أعلن "العوا "عن ترشحه لرئاسة الجمهورية ، وبما أن هذا الترشيح جاء بعد ثورة شعبية أطاحت بالنظام السابق فكان على "العوا "أن يملأ الدنيا ضجيجا بأنه طول عمره يساري ومناضل وأنه لم يكن أبدا ضد المسيحيين ..بصرف النظر عن كون هذا الترشيح يدخل في نطاق صفقة أم لا ، وبصرف النظر عن التطور الطبيعي في وظيفة "العوا "كأمين شرطة أو مخبر بالاتساق مع ظروف ومتطلبات المرحلة ، بصرف النظر عن كل هذا أتصور أنه لا يمكن لأحد تفادي التساؤل عن ركائز الثقة التي يستند عليها واحد مثل "العوا "وهو يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية ويوزع أكاذيبه في كل مكان بمنتهى البرود ؟ ..أعلم أن له أتباع كثيرين وناس كثيرة تصدقه وأن هناك شخصيات وتيارات وجماعات تحظى بجماهيرية عريضة تدعمه ، ولكن يظل كل هذا أيضا ليس له علاقة بتساؤلي السابق ..على ماذا يعتمد "العوا "في محو الماضي الذي لا يقبل المحو ؟ ..ربما ينبغي أن نفكر في أن أمثال "العوا "لا يعنيهم محو الماضي أصلا ، وأن ما يبدو منه كمحاولة لتثبيت صورة مثالية متبرأة من)أخطاء (الماضي ما هو إلا إجراء شكلي يجب تنفيذه بشكل أو بآخر سواء أتى بثماره أم لا ..سواء نسى الآخرون أم ظلوا محتفظين بما في ذاكرتهم عنه ..سواء تغاضوا عما قاله وفعله أم آمنوا بأن ما صدر منه لم يكن مجرد قول وفعل وإنما كان قتلا حقيقيا من بندقية قناص مأجور ..النتيجة ليست مهمة فيما يتعلق بهذا الشأن ..المهم هو الدور ..الوظيفة التي خلق لها ويجب أن يؤديها ـ كالعادة ـ بمنتهى الاتقان .

ممدوح رزق : السلطة والتمرد لا يستقران على هويات مقدسة

حوار :مجدي عبد الهادي ـ حسام شادي

" *يبدو أن أجمل الثورات تلك التي تمنع من قاموا بها من أن يأخذوا بالهم من أنها قد حدثت بالفعل ..." ...هل تمثل هذه الجملة تعبيراً عن عدم الثقة في كافة التحركات الجماهيرية في مصر وما خلقه ذلـــــك مـــــن اعتيـــــاد بفـــــصل الفعـــــل عـــــن النتيجـــــة المُرتجـــــاة؟

ـ هي تعبير عن تجاوز للثقة ونقيضها ، وهذا الأداء منفصل تماما عن الفرح التلقائي المباشر بإزاحة ديكتاتور ونظامه ..يمكنك القول أنه رد فعل طبيعي وضروري لكن الأهم في تصوري هو تخطي الحصار العقلي الذي تفرضه ذاكرة الفعل الجماهيري ..الانفلات من التحديدات الصنمية المبتذلة المتعلقة بالمراهنة على الوعي الجمعي ـ المتمنع عن الحسم أصلا أو عدم المراهنة عليه ..ما يعنيني بالأساس هو تشريح الأسس المتعددة ـ اللغوية خاصة ـ التي ساهمت في تشييد هذا الوعي وما أفرزتـــــه مـــــن منجـــــزات وقـــــيم ومبالغـــــات تراكميـــــة متـــــشابكة .

*تحمل الجملة السابقة تناولاً رومانسياً للثورة، فهل تقيم الثورات وفقا لمنجزاتها ونتائجها أم وفقاً لما يطلقـــــه الفعـــــل الثـــــوري مـــــن مـــــشاعر انتـــــشاء خـــــارج ســـــياق الرتابـــــة ؟

ـ هذه رومانسية خادعة، الغرض منها الاندماج مع الانتشاء والاستغراق بشكل كلي في أوهامه لحيازة فضح سليم للجوهر الغامض الجدير بالتتبع والاكتشاف بكل ما يختزنه من أمراض ..في النهاية جعلت الفرح خدعة مقصودة ينبغي التورط فيها للتشويش على عدم اليقين الذاتي ولدعمه في نفس الوقت ..أما بخصوص المنجزات والنتائج فهي ما تسفر عنه تأملاتك وألعابك اللامحكومة التي تحدد علاقاتك بالثورة وليس ما يفرض عليك من واقع سيظل منفصلا وغريبا عن عالمك الخاص مهما بلغت درجة ارتباطك به ..لو شئت القول أن هذا الارتباط هو في حقيقته تعميق للوحشة الشخـــصية .

*هل ترى الثورة شيء إيجابي في حدود كونها نوعاً من التمرد على السلطة بكافة أشكالها ؟

ـ أنا لا أحكم على الأشياء وفقا لمعايير "صحيح "أو "خاطيء "أو "إيجابي أو سلبي "لأنها تحمل كافة شرور السلطة وهذا بدوره يوفر لنا الإلهام عن فكرة "التمرد "باعتباره تجليا لأنماط متباينة ومتشابكة للقمع ..إذا جاز لي التأكيد على انحياز ما فهو عدم الاستقرار على هوية مقدسة أو تعريف ثابت للسلطة أو للتمرد عليها بمعنى مراقبة هذه المراوغة والالتباس في الجدل الذي يكمن بينهما .

هل تعتبر رفض بعض الفئات لتغيير السلطة نوعاً من التمرد على التمرد ؟

من ضمن الخدعة ما كتبته في إحدى مقالاتي بعد الثورة ، أن الحرية مربكة بالنسبة لهذه الفئات والتي قد تدفعها الضبابية والفراغ الناجمان عن سقوط رأس النظام الذي كان يمارس القهر ضدها إلى الرغبة في استعادته ..ذلك لا يتعدى نطاق الاحتمال وليس القانون الملزم ؛ فالحرية ليست أرضا واحدة معروفة يسهل على الجميع الاتفاق على كيفية الوصول إليها ، كما أن الارتباك يقترح أكثر من

معنى للتعبير عن حقيقته ، وما يمكن أن تميزه كتمرد قد يكون تحققا من جهة أخرى لسلطة غير مدركة ، وهذا ينطبق بالتالي على السلطة التي قد تسعى لتنفيذ آلياتها عبر أشكال تقليدية للتمرد .

" *على الثورة ـ ككل الأشياء ـ ألا تخدم أحداً "فمن المنوط بحملها إذا ؟

ـ المقصود بالخدمة هنا هو التوظيف القمعي لمكاسبها ـ إن أمكن قول هذا ـ بمعنى الركون والثبات على مشيئة إلهية لفرد أو جماعة وفرضها على الآخرين كحقيقة مطلقة لا يمكن مساءلتها ..كذلك المحاكمة المستمرة للأفكار والمشاعر الذاتية التي يفرزها الحراك الثوري ..قلت في الكتاب أن هذا يندرج في نطاق اللامنفعة المابعد حداثية وهي بالفعل كذلك لأن التاريخ لم يكف حتى الآن عن تثبيت براهينه المحرضة على عدم الإيمان بإمكانية تفسير العالم ..أي وصفة إنسانية عن الاستفادة الشاملة والنهائية من الثورة يمكنها الصمود في مواجهة هذا الغياب المتجذر للحكمة ؟. !

" *وفي العمق كل ثورة أخرى لم تقم ولن تقوم إلا بإعادة فتح الجرح ذاته ..."رغم انفتاح هذه الجملة على تأويلات عدة، إلا أنها بالمُجمل تصب في اللاجدوى التاريخية الشاملة للفعل الثوري، فهل المقصود بذلك تجدد الجرح ذاته في دورانية عبثية أم إعادة إنتاجه بأشكال وصور تختلف درجة ونوعاً في سياق تقدمي ؟

ـ هذه الجملة لـ "جان ليوتار "وكان يتحدث عن ثورة أكتوبر التي انطلقت تحت غطاء الماركسية مؤكداً على أن ماركس اعتقد أنه قام بكشف وفضح الجريمة الأصلية في أصل شرور الحداثة وأنه بالتعرية عن الواقع سيمكن البشرية من الخروج من طاعونها الكبير ..في تصوري أن الجرح بمفهومه الوجودي وبكافة شروطه الكونية الملغزة لا يغلق أصلاً، وإنما يظل مفتوحاً على طبائع متغيرة وأعماق متجددة مع احتفاظه بكل ما يمكن تخيله من ثبات أزلي والأمر هنا يتعلق بالتعذر الراسخ للوصول إلى خلاص كامل من الألم والذي ينتظر كل فعل سواء تم تصنيفه ثوريا أو لا .

* * *

الحوار المتمدن -العدد23 / 5 / 2011 - 3374 :

المثقف المسلم والدم المسيحي

في مقالي السابق "مصر زائلة وكاميليا خير وأبقى "كتبت عن مظاهرات السلفيين للمطالبة بالإفراج عن "أختهم "كاميليا التي زعموا أنها أسلمت وأنها مسجونة بأحد الأديرة ، وقلت أن السلفيين مجرد بلطجية تافهين مربوطين بالتشكيل العصابي المكوّن من السعودية وأمريكا واسرائيل الذي يدير اللعبة المخابراتية المسئولة عن تحديد المستقبل المصري بعد ثورة 25يناير ، وأن على ميدان التحرير أن يستعد إذن ـ إذا أرادات السلطة المصرية هذا ـ لتسجيل يوميات اللعب بالنار ..بعدها بأيام قليلة ظهرت "الأخت "كاميليا لتعلن أمام العالم أنها لازالت مسيحية ولتنفي كافة مزاعم السلفيين عنها ثم تقع أحداث إمبابة في نفس اليوم ..لم يكن التنبوء معجزة وإنما كان مجرد توقع بديهي أنتجته الإشارات الكارثية التي تعطيها حركة الواقع بكل ما يحتشد به من القتلة واللصوص وبكافة ما يحميه من حروب وصراعات ولافتات مبتذلة ..من السهل جدا بناء على ذلك أن يكتب أي شخص عن أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد ، وأن آلات الإبادة الجماعية ستواصل انتاج المزيد من أغنيات وشعارات وبيانات الوحدة الوطنية المسمومة ، وأن المسيحيين سيدفعون ـ كالعادة ـ ثمن تواطوء النظام الحاكم مع التحالف الوهابي الصهيوني لتحقيق مشيئة القوى الرأسمالية داخل مصر وخارجها ، والساعية دوما لتوظيف كافة المتغيرات لصالحها حتى ولو كانت هذه المتغيرات ناجمة عن ثورة شعبية قامت ضد جرائمها وضد عملاءها المكلفين بتنفيذ مشاريعها ومخططاتها الوحشية .

لكن إذا أراد أحد أن يتحدث عن المواجهة الفعلية ـ وهو الكلام الوحيد في رأيي الذي يمتلك المبرر وشرعية الوجود الآن دون غيره ـ فما الذي ينبغي التأكيد عليه حقا ؟ ..نحن إزاء مشهد واضح لا يعجز الأعمى عن رؤيته يتم فيه قتل المسيحيين وإحراق كنائسهم برعاية السلطة المصرية المؤلفة من بقايا نظام مبارك من رجال أعمال وشيوخ وإعلاميين وسياسيين وعناصر أمنية بالتضامن مع المجلس العسكري الحاكم وبدعم مادي من السعودية وأمريكا واسرائيل لفرض نظام حكم مستقبلي يتخذ ضرورته من السفالة الكلاسيكية لأكلاشيه "الفتنة الطائفية .. "نحن نتحدث عن حماية أرواح بشر تم الاتفاق على قتلهم من أجل حماية الدولار والوهابية واسرائيل ..يمكنني الآن بعد أحداث امبابه أن أذكر بعض "المثقفين المصريين "بعنجهيتهم المريضة وبتسامحهم المتبجح والزائف الذي كتبت عنه كثيرا حينما كانوا يملأون الدنيا بشعاراتهم المتعالية الخائبة عن عدم خوفهم من السلفيين ، وعن ضرورة قبول التيارات الدينية كجزء من النسيج الوطني والتي كشفت عن أنانيتهم ونرجسيتهم الجاهلة بالقدر الذي حاولت به التعبير عن موضوعيتهم وحيادهم ..يمكنني الأن بعد أحداث امبابه أن أقول أنهم "مثقفون مسلمون "لأنهم ليسوا مسيحيين ولم يقتل أحد من أسرهم أوعائلاتهم أو أصدقائهم أو جيرانهم أو معارفهم ولم تحرق دار العبادة التي يصلون فيها ..كانوا "مثقفين مسلمين "ولهذا كانوا يتمتعون بالأمان اللازم لتحويلهم إلى ملائكة مغرورة ترفرف في سماء الفيس بوك والمدونات لإعلان حبها للجميع وأن الدنيا حلوة .. !!!يمكنني بعد أحداث امبابه أن أذكّر هؤلاء "المثقفون " بأنهم نقلوا معركتهم بعد الثورة إلى المكان الخطأ وضد الأشخاص الخطأ ـ سواء كان ذلك بفعل الغباء أو بفعل التضخم الحاد والمضحك للذات ـ حيث استبدلوا مواجهة الجيش والإخوان والسلفيين والجماعات الإسلامية ومافيا الخارج التي يشتغل عندها كل هؤلاء بمواجهة أي ليبرالي أو علماني أو أي أحد يحذر من نوايا التكاتف بين الدبابات واللحى ..بدلا من مواجهة مظاهرات "كاميليا "في الشوارع بمظاهرات مضادة ظلوا جالسين أمام الفيس بوك يتبادلون الصور والكليبات ويكتبون التعليقات المازحة عن سجناء طرة ..ماذا كانت نتيجة كل هذا ؟ ..أعتقد أن صور قداس ضحايا امبابة تكفي .

ولأن الأمر فعلا لن يتوقف عند هذا الحد ، ولأن أخبار وإشاعات وفيديوهات "أسلمة البنات القبطيات "لن تتوقف ولأن أخبار وإشاعات خطف "البنات القبطيات من الشوارع "لن تتوقف .. على هذا :إذا كان هناك بشرا في مصر يدركون أن مصر بعد ثورة 25يناير لا يمكن أن يسرقها ثانية القوادون والسماسرة من تجار الدين المأجورين الذين يتسببون في تعرض الحيوانات والحشرات لإهانة بالغة وأذى فادح كلما تم تشبيههم بهم ، وإذا كان هناك بشرا في مصر يؤمنون فعلا أن هناك قاتلا ينبغي محاكمته وعقابه ومقتولا ينبغي الانتقام لدمائه ، وإذا كان هناك بشرا في مصر كانت لديهم القدرة على الخروج إلى الشوارع والتظاهر والاعتصام في أي مكان سواء قبل الإطاحة بمبارك أو بعدها ..على هؤلاء البشر التوقف فورا عن إصدار بيانات الإدانة والاستنكار على الإنترنت والخروج بشكل مستمر ودون توقف في مظاهرات حاشدة ليس إلى "ميدان التحرير "ولا إلى "ماسبيرو "بل إلى مقرات الجماعة السلفية في جميع أنحاء مصر ومراكز تجمع وبيوت شيوخها ونشاطائها وتهديدهم بشتى الوسائل ليجربوا معنى الترويع والاعتداء على الأمن والسلامة .. عليهم عدم الكف عن إطلاق دعوات الإضراب والعصيان المدني داخل كل محافظة للمطالبة باعتقال هؤلاء الشيوخ وهم معروفون بالاسم والفيديوهات والتسجيلات والصور التي تدينهم متاحة للجميع ، وتقديمهم إلى المحاكمة لينالوا جزاءهم ..إنه الوقت الصحيح للمظاهرة المليونية التي راهن عليها الجميع من قبل ..عليها الآن أن تتواصل وتتلاحق ليس تحت شعارات الوحدة الوطنية وإنما تحت شعار واضح وصريح ومباشر لا التباس فيه :حماية المسيحيين من المجرمين السلفيين ..إذا أرادوا أن يقتلوا المسيحيين فليقتلوا المسلمين معهم ..على هذه المظاهرات أن تتوجه إلى مقر المجلس العسكري الحاكم دون أن تهدأ للمطالبة بتقديم السلفيين إلى المحاكمة بكل نجومهم ورموزهم من رجال الأعمال وأصحاب القنوات والشركات والأراضي والعقارات والفيلات والأرصدة الخليجية .. لا يجب القبول بتقديم أكباش فداء للمحاكمة ..لابد من محاكمة كل من حرض ضد المسيحيين بأي شكل من الأشكال سواء قبل الثورة أو بعدها ..على المظاهرات والاعتصامات والاضرابات أن تضع المجلس العسكري في مواجهة مع الشعب :إما القصاص من القتلة أو الحرب ضد الجميع وحينئذ سيتم تثبيت كل مجرم في مكانه الصحيح.

مصر زائلة وكاميليا خير وأبقى

ما الذي يتحكم في تطوير الصراعات الفردية أو يمكنه السيطرة الآمنة على منابعها ومصادرها داخل دولة ما بحيث يمنع هذه الصراعات من التحول إلى أزمة مجتمع؟ ..ما هي الشروط والمعايير التي يفرض على أساسها المدى الذي يمكن أن تصل إليه حروب المعرفة والوجود بين الكيانات والجماعات الشعبية داخل إطارها السياسي أو الاقتصادي أو الديني؟ ..ما هي المرجعية التي لديها القدرة على حماية هوية عادلة توفر الاستقرار والسلام المعيشي للطوائف والفئات المختلفة ولديها نفس القدرة على فعل العكس وبنفس الكفاءة ؟

ربما الحديث عن السلطة التي تسعى بنية خالصة ـ وعلى قدر ما تستطيع ـ للقضاء على أسباب العداء والكراهية بين البشر داخل الجغرافيا التي تنتمي إليها أو حتى إبقاءها في نطاق منعزل عن مباديء المساواة والحقوق القانونية والدستورية الغير قابلة للتزييف أو للمساومة ربما هذا الحديث يمثل مناقشة خيالات وأوهام مستحيلة إن لم يكن استقراءا للعبث ذاته، ولكنها لن تكون كذلك لو تحدثنا عن السلطة التي تفجر الصراعات اعتمادا على جذورها التاريخية أو تقوم باستغلالها وتوظيفها حين تنشأ داخل حدود فردية ..السلطة التي ترتبط أهدافها وطموحاتها بمصالح قوى خارجية وتمتلك من الرصيد البشري والمادي ما يكفي لتنفيذ رغباتها الاستبدادية سواء كانت مرحلية أو دائمة.

في مصر برزت النوايا الإجرامية المريضة للجماعات الدينية التي كانت تعمل ككلاب حراسة لنظام مبارك وجهازه الأمني وبالتبعية المباشرة لطغاة الوهابية العملاء لأمريكا واسرائيل وذلك بممارسة الإرهاب المتصاعد ضد الجميع بعد ثورة 25يناير وتولي المجلس العسكري الحكم ..جماعات تهدد وتتوعد كل من ينوي فتح فمه لمعارضتها وآخر ما فعلته الخروج في مظاهرة ضخمة للمطالبة بالافراج عن "كاميليا" المسيحية التي يدعون أنها أسلمت وأنها مسجونة بأحد الأديرة ..ظهرت في المظاهرة لافتات تحمل عبارات " :عايز أختي كاميليا "و "اطلقوا سراح الأسيرات المسلمات " وغيرها برفقة علم مصر ولكن في شكله الديني السلفي الجديد :لا إله إلا الله محمد رسول الله باللون الأخضر على اللون الأبيض في المنتصف بديلا للنسر الذهبي.

ليس السؤال لماذا يفعلون ذلك ولكن السؤال لماذا تسمح السلطة في مصر الآن بذلك؟ ..الإخوان والسلفيون والجماعات الإسلامية ليسوا إلا بلطجية تافهين مربوطين بحبال زعماء العصابة في الخارج ..إذن من الذي يجروء على استبعاد حقيقة أن المستقبل المصري ليس أكثر من لعبة مخابراتية بين السعودية وأمريكا واسرائيل؟ ..حتى المتورطين في المواجهة من الرموز المصرية سواء من الليبراليين أو من مشايخ الأزهر والصوفية فإن خطاب المواجهة الذين يصدرونه يظل خاضعا للسلطة بشكل كامل ..على ميدان التحرير أن يستعد إذن ـ إذا أرادت السلطة المصرية هذا ـ لتسجيل يوميات اللعب بالنار.

إنسان الثورة

أعرف رجلا عجوزا اعتاد السير في الشوارع واضعا طربوش على رأسه ومرتديا بدلة قديمة وكرافتة ويشتم الملك "فاروق "لأنه لم يضرب "العيال بتوع الجيش "ورحل تاركا البلد لهم .. صوته الجهوري الذي لا يبدو متناسبا مع كبر سنه طالما شعرت أنه يستمد قوته من سطوة الحضور الطاغي للماضي في نفسه ..ثقل اليقين القديم الذي خذله تحديدا وجعله يحوّل حياته إلى رحلة مستمرة من الرفض العلني والاحتجاج الهادر على خيانة غير متوقعة ما كان ينبغي لها أن تحدث ..منذ سنوات طويلة والرجل يوفر للآخرين فرصة دائمة وسهلة للضحك ..لتعويض الخيبة الشخصية بالتهكم على مظهره وعلى سبابه الغاضب ..فرصة لإثبات ملكية العقل الذي لا يزال يحمي كل واحد منهم ـ حتى الآن ـ من أن يصبح مثله ..ربما هناك من الأسباب النفسية الأخرى الكثيرة التي جعلت الرجل العجوز هكذا ولكنني إذا استبعدتها مكتفيا بالصورة المباشرة والواضحة التي يقدم من خلالها وجوده إلى العالم سأقول ـ بإيمان حقيقي ـ أن هذا الرجل يمثل التجسد الأكثر تحررا لذواتنا ..نحن بشكل أو بآخر عبيد هذا الغياب ..غياب الإنسان الذي لم يمنحه التاريخ أبدا لنا حتى يكون الإرث المثالي اللائق للحاضر مثلما كان لائقا للماضي ..الرمز المطلق ليس كسلطة وإنما كروح كونية غير متعالية متاحة للكل في قدرتها على الإرضاء والطمئنة ..الهزيمة ليست في الخضوع لنظام سياسي وإنما في افتقاد الحقيقة التي توفر الخلاص الحاسم والنهائي بنسب متساوية ..في العدل المتمنع الذي تظن كل فئة من الناس أن بحوزتها أدواته وحينما يتحول الظن إلى عقيدة تصبح الفئة هي الأداة ويتحول العدل المتصور إلى مبرر حصين للصراع والقهر والتدمير .

قد يتفق المصريون على إسقاط نظام مبارك وقد تجمعهم الثورة حتى يتم هذا الإسقاط ولكن بعده سيقرر كل مصري أن من حقه تحديد طريقته في تحقيق الأمان للوطن وللمصريين ..التحديد بما يعني محاولة فرض الأمر الواقع الذي على الكل الاستسلام له والفرح به .. !أين إنسان الثورة إذن ؟ ..ليس المنظّر أو القائد وإنما الفرد العادي جدا الذي خرج في 25يناير وحارب وانتصر في في 11 فبراير ؟ ..هذا الإنسان موجود في فوتوغرافيا الثورة وأغنياتها وقصائدها ولكن حياتيا ليس له وجود حقيقي ..إنسان الثورة ليس أكثر من وهم يعتقد كل جماعة من البشر أنها تمتلكه وعلى هذا تنتج خطابات وممارسات الهيمنة التي تقدر عليها في مواجهة خطابات وممارسات الهيمنة الأخرى .. المضحك فعلا ـ وهنا علينا تذكر الرجل العجوز الذي يشتم الملك فاروق ـ أن كل فئة تتحدث عن إنسان الثورة الذي تدعي حيازتها له بوصفه ضمانا لاستمرار الثورة ونجاحها كأن هذا "الضمان " ليس نوعا من التهديد بتطوير الصراع ضد القوى الاجتماعية الأخرى ..الثورة كانت إذن ممرا للجنة على الكفار مغادرتها .. !هي لم تكن ثورة إذن ، أو ـ بمزيد من الصدق ـ هي ثورة ككل الثورات ونحن كوميديون كالعادة .

يمكن لأي كيان سياسي أن يواصل الحرب ضد النظام السابق ، ويمكنه أن يواصل السعي للحصول على شعبية لم تكن في رصيده من قبل ، وأن يستمر في نضاله لهدم المؤسسات وإعادة بناءها ، ولكن تحت أي لافتة ؟ ..لن يكون العنوان التي ستندرج تحته هذه "التحركات الثورية الشريفة "أيا كانت إلا حاملا لروح إقصائية تهدف للاستحواذ واعتبار مشاريعها قرارات وأوامر ملزمة على الآخرين الانصياع لها دون نقاش .. !أي من هذه الكيانات حينما يرغب في تعريف نفسه لن يكون في حاجة لأكثر من يقول أنه عثر على إنسان الثورة . !!

نحن لم نصل بعد لرفاهية التعبير الصحيح عن البطولة التي ندعيها ..عن النموذج المستقر والمزدهر في داخلنا والذي ليس إلا عماء راسخ وأزلي ..لم نصبح بعد في نقاء الرجل العجوز الذي يسير في الشوارع ويشتم الملك فاروق .

خفة المثقفين المصريين التي لا تحتمل

منذ مدة قصيرة وتحديدا في الفترة التي صاحبت الاستفتاء على التعديلات الدستورية في مصر وهناك لعبة ظريفة جدا على الفيسبوك يمارسها)المثقفون المصريون .. (هذه لعبة تتلخص في من هو)المثقف (الذي سينجح في الحصول على أكبر كم من الـ likeتحت عبارة مثل "أنا مش خايف من الإخوان والسلفيين"، أو "أنا ضد الخوف من التيارات الإسلامية "وغيرها من العبارات المشابهة التي تحمل نفس المعنى ..عن نفسي لا أعرف من هو)المثقف المصري العظيم (الذي كان أول من استخدم كلمة)الخوف (في سياق الحديث عن علاقة)المثقفين (بالصعود السياسي للقوى الإسلامية بعد الثورة حيث ينسب له الفضل بالتأكيد في اختراع هذه اللعبة ومن ثم نجاحها وانتشارها بهذا الشكل.!!

الجميل في الأمر هي قدرة هذه اللعبة على شحن طاقتها وتطوير نفسها باستمرار وذلك بتوظيف كافة المستجدات التي لها علاقة بالموضوع ..مثلا حينما استعرض أحد أراجوزات السلفية المعروفين أمراضه وراح يهذي بحماقاته الشهيرة عن)غزوة الصناديق (سارع هؤلاء المثقفون بالتأكيد على أنهم لا يخافون من السلفيين!!، وحينما عاد نفس الأراجوز ليؤكد على أن ما قاله كان مجرد دعابة، عاد نفس المثقفين للتأكيد أكثر على أنهم لا يخافون من السلفيين .. !!أيضا حينما قام بعض مجرمي السلفية بقطع أذن مواطن قبطي في الصعيد سارع هؤلاء المثقفون بالتأكيد أكثر وأكثر على أنهم لا يخافون من السلفيين!!، وكذلك حينما قامت عصابة أخرى من السلفيين بالاعتداء على سيدة بالمنوفية وإشعال النار في منزلها سارع هؤلاء المثقفون بالتأكيد أكثر وأكثر وأكثر على أنهم لا يخافون من السلفيين، وعلى هذا فنحن بالطبع في انتظار المزيد من التأكيدات على عدم الخوف من السلفيين مع كل تحريض وتهديد ومع كل قطع عضو ومع كل ضرب وحرق قادم بإذن الله تعالى.!!

المثقف المصري يثبت كالعادة أنه تاجر شاطر ..يعرف أنه من السهل جدا أن تشتم الإسلاميين وتكتب مقالات وبيانات ضدهم بل وتخرج في مظاهرات تندد وتشجب ما يقومون به كما يفعل الليبراليون والعلمانيون العاديون وكذلك نشطاء الشارع والفيسبوك والمدونون الذين لا أول لهم ولا آخر ..لكن من الصعب جدا أن تقول للناس من حولك بمنتهى الوضوح "أنا لست ضد أحد ..أنا مع الكل ..أنا متسامح ..أنا مثالي ..أنا أحسن منكم جميعا .. "!لا يمكنه أن يطرح نفسه صراحة كقديس محاط بهذه النرجسية المضحكة التي ستحدد إقامته في وطن خرافي متعال محاصر بالرفض والاستهزاء ..معركة الليبراليين والعلمانيين ضد التيارات الإسلامية لا يتوقع أن تنتج أبطالا محددين نظرا لكونها معركة جماعية تتعدد فيها الأصوات وتتداخل ومن ثم تغيب لصالح المعركة نفسها فتصبح هي البطل ..هذا ما يستوعبه جيدا المثقف المصري ويرفضه لأنه يريد ببساطة أن يكون صوته عاليا ومميزا ومتفردا ..يريد أن يكون هو البطل ولهذا يصنع معركته الخاصة التي حتى لو شاركه فيها أحد فإنها تظل ملكا له وحامية لصوته من التشويش والتغييب ..تظل خادمة لبطولته المقررة سلفا ..بعد الثورة ومع التصاعد المنظم والمتسارع لبلطجة القوى الإسلامية عثر المثقف المصري على فرصة ذهبية داخل الصراع المنطقي الناجم عن هذه البلطجة بين أنصار مدنية الدولة وبين شيوخ التيار الديني وأتباعهم ..فرصة لأن يكون بطلا ..البطولة هنا لن تتأتى طبعا بالتورط في المعركة التقليدية وإنما في استغلالها لإحراز بطولة شخصية ..اكتشف المثقف المصري وسيلة جيدة للتنكر لم يعد معها في حاجة لتقديم نفسه كملاك في صورة مبتذلة ..يمكنه الآن أن يتفادى الحديث بشكل مباشر عن مثالياته التي على الجميع احترامها وتقديرها ووضعها في مكانتها المقدسة الصحيحة .. !!يمكنه بدلا من ذلك أن يقول فقط أنه لا يخاف من الإسلاميين.!!

تكمن اللعبة في كلمة الخوف ويكمن سحرها في كونها ستارا يحجب ـ عن عمد ـ مواجهة سؤال يعرف المثقف المصري أنه سيقف حائلا بينه وبين المكسب الخاص الذي يسعى لتحقيقه :هل تكمن الأزمة في الفكر أم في استعماله من قِبل السلطة؟ ..لا يوجد من المثقفين المصريين من لا يعرف تماما بأنه لا يمكن لأي تيار سياسي أو ديني أن يمارس وصايته على المجتمع إلا تحت حماية نظام حاكم يسمح له بهذا ويدعمه ..تم استبدال هذه المعرفة بكلمة الخوف لتفادي الصدام مع الأسئلة الأخرى التي يمكن أن تنجم عن السؤال الأصلي :من الذي يسمح للسلفيين بأن يفعلوا ما يشاؤون بكل هذه الحرية ودون حساب أو عقاب؟ ، ولماذا ؟ ..لماذا يتم في المقابل اعتقال آخرين وتعذيبهم وإصدار أحكام بالسجن في حقهم لمجرد مشاركتهم في مظاهرة أو اعتصام؟ ..الخوف من الإسلاميين اختراع يعرف المثقفون الذين ابتكروه أنه لم يكن له وجود أصلا، وأنه لم يكن سوى العدو الضعيف الذي أحضروه من الوهم حتى يستعرضوا عضلاتهم على حسه ..البديل النموذجي والآمن واللطيف للمعركة الأصلية التي لن تجعلهم أبطالا :إسقاط النظام الذي لم يسقط بعد.

التحية العسكرية للشهداء : بداية الثورة المضادة

يوجد من الليبراليين المصريين من يحاول تثبيت نفسه على أنه "الأكثر ليبرالية من الجميع "أو " التجسد النقي لليبرالية المصرية "، وذلك بتحويل حالة الالتهاب العاطفي المتزايدة حاليا بين الجيش والتيارات الإسلامية إلى إدانة لليبراليين أنفسهم الذي يعد ـ وفقا لطرحه البريء ـ عدم اعترافهم بحرية رموز القوى الدينية وقبولهم لهم كجزء من المكوّن المصري يعد خيانة أو انحرافا عن الجوهر الليبرالي السليم ..ربما هي سذاجة أو نوع من العمى يفرضه الانقياد وراء الرغبة في طرح صورة رومانسية عن الذات منفصلة بطبيعة الحال عن المعطيات الموضوعية للوضع الراهن والأهم أنها منفصلة عن تاريخها ..لكن علينا أن نفكر أيضا في أن)الروح الدينية (وهو وصف استخدمه بغرض الانفتاح على كل ما يمكن أن يعنيه الالتزام بعقيدة ما في جميع مستوياته المتدرجة وباختلاف وتنوع مظاهر الفهم والانتماء لها ، هذه الروح الدينية لدى بعض الليبراليين قد تتجاوز الحدود الشخصية ـ ولو بكيفية غير مباشرة ولا واعية أحيانا ـ نحو "الحفاظ على دين الدولة "حتى وهو في أقوى حالاته سعيا نحو تحقيق مدنيتها ..ربما وهو لا يجد أي نوع من التحالف الذي تتضح وتتأكد ملامحه لحظة بعد لحظة بين الدبابات واللحى ، وبينما يطالب إخوانه الليبراليين بأن يقوموا بدورهم في توعية الشعب المصري بالخطر الديني وبالعمل على استيعاب جميع التيارات داخل مستقبل الدولة المدنية ؛ ربما يرى أنه يخدم الوطن والمشروع الليبرالي الذي ينحاز إليه ولكنه قد لا يفكر في أنه ـ بهذه المثالية المقصودة أو لا ـ ربما يحاول حل مشكلته الدينية الخاصة على حساب مستقبل الدولة المدنية التي يطالب بها .

هناك كلاما قديما أصبح كالأغنيات الشهيرة التي يحفظها الجميع ويرددها طوال الوقت ولو بأشكال وأساليب متعددة :التيارات الإسلامية هي الأكثر تنظيما بين جميع التيارات السياسية في مصر ـ الليبراليون منقسمون ومفككون ـ القوى الدينية لها قاعدة جماهيرية عريضة وشعبية جارفة وحضور إعلامي هائل ـ التيار العلماني ضعيف بسبب انعزال رموزه وأفكاره عن الواقع النفسي لدى أغلب المصريين القائم على ارتباط الحياة اليومية بالدين ـ الإسلام السياسي يعتمد في الأساس على استغلال العاطفة الدينية لدى الجماهير فيصبح انتصار الناس للتكوينات الإسلامية هو انتصار لله ورسوله ويصبح أعداء هذه التكوينات هم أعداء الله ورسوله .

ولأنه كلام قديم ومعروف سنضعه جانبا دون أن ننساه حتى نستبدله بعدة أسئلة أراها الآن أكثر ضرورة :

من الذي قال لذلك الليبرالي)الواعي (أن معركته بالأساس بعد ثورة 25يناير ضد التيارات الإسلامية سواء اتخذت هذه المعركة سلوكا إقصائيا أو حكمها الميل نحو الاحتواء ؟ ..لماذا لا يسأل الليبرالي نفسه عما يقف وراء تشكيل جيش بعد الثورة يضم الإخوان ودعاة الفضائيات والجماعات السلفية ليتنقلوا بصحبة العسكر بين الميادين والقنوات والمساجد الكبرى ومراكز صنع القرار السيادي في مصر ؟ ..لماذا تم الافراج بعد الثورة عن المعتقلين الإسلاميين فحسب في حين لا يزال الآلاف من المعتقلين الآخرين في السجون سواء المعروفة أماكنهم أو المحبوسين في معتقلات النظام السرية التي لم يتم الكشف عنها حتى الآن ؟ ..لماذا تستمر الاعتقالات حتى الآن للنشطاء الغير منتمين إلى جماعات دينية وتعذيبهم ثم تحويلهم إلى محاكمات عسكرية عاجلة وتصدر في حقهم أحكام بالسجن في حين يتم التعامي عن آخرين ويتم تحويل محاكمات البعض الآخر إلى نزهة طويلة المدى ؟ ..لماذا اتفق الجيش والإخوان المسلمون على التعديلات الدستورية في الوقت الذي رفضتها بقية القوى السياسية التي شاركت في الثورة ؟ .

الذي يفهم الوضع الحالي في مصر على أنه انفتاح على الحرية أنجزته الثورة يجب على الجميع قبوله سواء من الإسلاميين أو الليبراليين هو بذلك يؤدي في حقيقة الأمر خدمة كبيرة للجيش المصري الذي أعلن بنفسه عن بداية الثورة المضادة لحظة تأدية اللواء محسن الفنجري التحية العسكرية لأرواح الشهداء .. الذي يسعى الآن لاستغلال الجدل الناتج عن التخوف والترقب الليبرالي في مواجهة الصعود الديني كي يحاول تقديم نفسه بنبل مجاني على أنه الفارس الشريف المدافع عن حق الجميع في تبني أي توجه فكري والدعوة إليه فهو يدعم ـ سواء كان على دراية بهذا أم لا ـ ممارسات المجلس العسكري الحاكم ومخططاته في معاقبة الثورة المصرية على (اللادينية) (التي أنجحتها وهو لا يحتاج لتحقيق ذلك إلى أكثر من استخدام الورقة المهترئة الرخيصة التي طالما لعب بها كل الديكتاتوريين السابقين .. استخدام التيار الإسلامي كجلاد بديل يكون على المصريين الاختيار بينه وبين أي سلطة تقررها الثورة المضادة ، وفي نفس الوقت يصفي بواسطة هذا التيار حساباته مع الأطياف السياسية الأخرى التي كسبت ـ شكليا ـ معركتها مع النظام وأصبحت ـ بدرجة ـ تمتلك صوتا عاليا بعد الثورة .

يمكننا أن نكتب كثيرا ونتحدث كثيرا ونتناقش ونختلف ونتبادل العداء يوميا على الفيس بوك والمدونات حول معنى الحرية والعنف والتطرف والفرق الذي على (الأذكياء) (تحديده بدقة بين استخدام السلاح وبين الاكتفاء بطرح الأفكار المحرضة على استخدامه .. !!!يمكننا أن نفعل كل هذا سعيا وراء أي بطولة يمكن أن تطالها أيدينا ، ولكن الأجدى ـ في تصوري وإن كانت هناك جدوى حقا ـ أن نرى أبعد من قبول أو رفض الآخر .. أن نراجع شهادات وصور من تم تعذيبهم واعتقالهم على يد الجيش المصري وأن نراجع تاريخ الصراع (الديني /الليبرالي) (الذي تحتاج السلطة تفجيره دائما لحماية نفسها .. علينا ألا نقدم لهم ما يريدونه أو حتى على الأقل لا نقدمه سهلا هكذا ومغلفا بكل هذا القدر من الكوميديا القاسية .

الحزب بديلا للثورة

منذ أيام قليلة دعاني أحد الأصدقاء لاجتماع يضم عددا من المشاركين في ثورة 25يناير من أبناء مدينة "المنصورة .. "أخبرني أن الهدف من الاجتماع هو الإعداد لإنشاء حزب سياسي ، ولأنه على علم تام بموقفي الرافض للانضمام لأي حزب سواء قبل أو بعد الثورة فقد أنهى صديقي دعوته التليفونية بأنني قد أرغب في الحضور للمشاهدة والاستماع ..ذهبت مع صديقي لهذين السببين بالفعل لأجد الاجتماع على وشك الانعقاد داخل شقة تحت التشطيب ببرج سكني يمتلكه تاجر وصاحب مصنع لم ألتق به من قبل ..جلست مع صديقي بعد مصافحة الموجودين في انتظار قدوم المزيد من الذين أكدوا حضورهم والذين راحوا يتوافدون الواحد بعد الآخر ..كان منهم من أعرفه بالاسم أو بالشكل أو بالمهنة أو بالانتماء السياسي ، وكان من بينهم أيضا من تربطني به صداقة قديمة وصدق توقعي حينما تأكدت فيما بعد أنه جاء لعلمه بأن صاحب المكان رجل كريم لن يمنعه كثرة الموجودين من تقديم واجب الضيافة والذي كان عبارة عن كوب شاي وعلبة عصير لكل ضيف .

لن أتحدث عن ماضي بعض الحاضرين الذي أعرف عنه الكثير ليس لأنه لا يخصني ، ولا لأنني لست من الذين ينتهزون أي فرصة لمحاكمة الآخرين فحسب بل لأن ما يعنيني هو ما بعد 25يناير دون أي شيء آخر ، وبما أنه يفترض أن هذا الاجتماع يندرج ضمن ذلك السياق فهو ما يستحق التركيز عليه إذن ...

ثمة عنوانين كبيرين يلخصان ذلك الاجتماع الذي لم أكمله بسبب متاعب "المرارة "وهما : التعارض في المواقف ، والرغبة في الحزب ..لم يكن هناك اتفاقا بين الموجودين حول تقييم نتائج الثورة والخطوات التي ينبغي أن تتخذها للحفاظ على منجزاتها وبالضرورة تحقيق بقية الأهداف التي قامت من أجلها ..لم يكن هناك اتفاق للأسف رغم وجود كل شيء :ثوار ، مكان واسع ، مشروبات ، كشكول وقلم ، وأولا وقبل أي شيء حب مصر ...

كان هناك من يتهم الجيش بالعداء للثورة ، وكان هناك من يؤكد على أن الجيش هو من أنجحها .. كان هناك من يرى ضرورة استخدام العنف لإسقاط حكومة)شفيق (باقتحام الوزارات واحتلالها ، وكان هناك من يرى إعطاء هذه الحكومة فرصة للعمل مع إجراء تغيير في بعض الوزراء ..كان هناك من يؤكد على خطورة وجود مبارك وعائلته في مصر ، وكان هناك من يرى في الأمر مبالغة وأن مبارك لم يعد يمثل خطرا على الثورة ..كان هناك من يرى أن رجال الحزب الوطني ورجال الأعمال أصحاب النفوذ السياسي وأعوانهم في الداخلية وأمن الدولة هم من لا يزالون يديرون الحياة المصرية ، وكان هناك من يرى العكس بدليل المحاكمات التي تطال كل يوم المزيد من مراكز القوى ..كان هناك من يرى خطورة في المظاهرات والاحتجاجات الفئوية باعتبارها جزءا من الثورة المضادة لإشاعة الفوضى ، وكان هناك من يرى أنها ردة فعل طبيعية للغاية على سقوط رأس النظام وأنها يجب أن تستمر حتى إسقاط جميع رموز الحزب الوطني داخل كل مؤسسة .

ورغم كل الأصوات العالية والاتهامات بالجهل والتهديد بالانسحاب ظل الأمر الوحيد الذي يجمعهم هو فكرة إنشاء حزب ..استغلال الفراغ السياسي واللحاق بسباق السلطة في عصرها الجديد بعد انهيار النظام القديم ـ وهو ما لم يحدث حتى الآن ..الرغبة في التحرر من سجن الهامش واحتلال أي موقع في المركز الذي يخلق تدريجيا بعد سنوات طويلة من الإخضاع والكبت ..الحصول على الحق من ثورة أعطوها الخروج من البيوت والهتاف في الشوارع ومواجهة الأمن على مدار 18يوما وينتظرون منها أن تعطيهم في المقابل الأدوار القيادية التي كانوا دائما محرومين منها .

أنا لست ضد أن يجتمع أي بشر مع بعضهم ولست ضد أن يكوّنوا أي حزب "مدني "، ولكنني ضد التغاضي عن محاولة الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالأمر والتعامي عنها :هل إنشاء حزب سياسي

يقوم على فكرة "تجميع "ناس شاركوا في الثورة بصرف النظر عن التعارض الحاد بين رؤاهم من أجل الهدف "الأسمى "وهو وجود حزب في حد ذاته ، أم يقوم على الانسجام الفكري وتبني منهج موحد وآلية موحدة لتنفيذ خطط وبرامج متفق عليها تخدم الأسباب التي جمعت القائمين على تأسيس الحزب والتي استدعت خروجه إلى الحياة ؟ ..هل الثائر الذي يريد أن يواصل ثورته من أجل استكمال نجاحها والحفاظ على مكتسباتها لا يمكنه أن يفعل ذلك إلا من خلال تكوين حزب أو الانضمام له ؟ ..هل فكرة "الحزب "هي الوسيلة الناجحة بالفعل لمواجهة انتقام بقايا النظام من الثورة وما يمكن أن يرتكبوه من جرائم في سبيل استعادة ما فقدوه بسببها ؟ ..هل يمكن للأحزاب التي تشبه بعضها وتكتب نفس اللافتات وتضع نفس الأسس والبرامج ، ومع ذلك سيكون الصدام حتميا بينها عند بدء الصراع على الشعبية ؛ هل يمكنها أن تواجه حدوث اغتيالات أو اعتداءات طائفية أو حركات تمرد في الشرطة أو هروب لضباط أمن الدولة أو تهريب أموال وعملات للخارج أو ...إلخ ؟

كيف يمكن للثورة أن تستمر كما بدأت ، وكيف يمكن للإنسان المصري أن يعتبر أن يوم 25يناير لم ينته بعد ؟ .

الثورة والشيخ

الذي ظل طوال السنوات الماضية يحرّم الخروج على طاعة الحاكم ، ويحرّض ضد المتظاهرين والمعتصمين والمضربين ..الذي ظل يغيّب عقول المصريين ، ويقيد إرادتهم ، ويخرس ألسنتهم بعذاب القبر ، وأهوال القيامة ، وبالتخلي عن الدنيا طمعا في الآخرة ..الذي لم يكن يعنيه ما وصل إليه بؤسهم ومهانتهم ، بقدر ما كان يعنيه أن يستمروا في الاتصال ببرنامجه للسؤال عن فتوى ، وللتأكيد على أنهم يحبونه في الله ..بقدر ما كان يعنيه أن يواصلوا إرسال smsتحمل توبتهم واستغفارهم ، أو أن يشتركوا في خدمات الموبايل للحصول على النغمة الإسلامية ، والأدعية الإسلامية ، والخلفيات الإسلامية ، وأيضا شراء العسل الإسلامي ، والأعشاب الإسلامية ، وكذلك الحلل ، والأطباق ، والبطاطين ، وأطقم السرائر الإسلامية ..الذي لم يضيع وقته أو يعكر مزاجه بقراءة أية إحصائية عن التزايد البشع لضحايا السرطان ، والالتهاب الكبدي الوبائي ، والفشل الكلوي بمصر وهو يراقب تدفق البترول الوهابي على أرصدته حتى يكدس في ثرواته ، ويزيد في فيلاته وأبراجه وسياراته ، ويجدد في زوجاته ..الذي أقام مآتم العزاء ، ووصلات البكاء والنحيب على وفاة حفيد مبارك ، في الوقت الذي ظل يشدد فيه على أن الحجاب فرض عندما كان المئات يحترقون في القطارات ، ويغرقون في العبّارات ، ويقتلون في أقسام الشرطة ..الذي ظل جلبابه الأبيض نظيفا ، ولم يتسخ من عرق الأتوبيسات وطوابير الخبز وأنابيب الغاز ، ولم تبلل لحيته بدموع الحاجة إلى طعام أو دواء أو عمل ..الذي ظهر على الشاشات كمخبر أرسله مأمور القسم ليتصنع البكاء محاولا إرهاب الثائرين من احتمال أن يطلق الجيش عليهم النار .....

الآن يقول أنه ثائر !!، وأن على جميع الثوار أن يعتبرونه ثائرا .. !!الآن يقول أنه مع مطالب الشعب ، ومع كل ما نادى به شباب الثورة ، وما ضحى من أجله شهدائها .. !!لكنه لا يريد استمرار الاعتصامات والاحتجاجات ..لا يريد المساس بالمادة الثانية من الدستور ..لا يريد من المسيحيين أن يخافوا ..لا يريد أن يحدث انقسامات في صفوف شباب الجماعات الإسلامية ، وبالمناسبة فهو لا يريد أن يتولى أي منصب . !!

ليست هناك أية بجاحة أو متاجرة أو نصب في الموضوع :هكذا يرى موقفه من مرحلتي ما قبل الثورة وما بعدها ، لا يرى أي تناقض أو تبدل ..هو رجل دين ، وهذا يكفي جدا ..عليه إذن أن يقول ما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وأن يتسق مع شروط كل وقت وفقا لمصلحته كما يشاء ..هو شيخ إسلامي لذا هو أحسن من يفهم في الإسلام الذي هو أحسن دين ، وبالضرورة يحق له أن يدخل الدنيا في الدين حينما يرغب ، ويفصلها عنه حينما يرغب ، وعلى الآخرين أن يحترموا هذا ويسكتوا بنفس القبول والاستسلام اللذين يغلفان سكوتهم أمام الآية والحديث .

على شباب الثورة الذين أشاد بهم وحيّاهم في خطبه أن يغمضوا وعيهم عن فهمه الذي لا يحتاج بالتأكيد لعبقرية استثنائية ..الشيخ ـ بصفته هكذا ـ يريد الخير لمصر ، والخير لن يكون إلا في الإسلام ، ولكن بالطبع ليس أي إسلام ؛ الخير فقط في الإسلام الذي تعلمه ودرسه وحفظه وآمن به وظل ينشره في كل مكان يذهب إليه ..الكل سيستفيد من هذا الخير :الإسلام ومصر وهو !!!

في مقال سابق عن الثورة كتبت أن المستقبل ليس له ، وهذا المقال فرصة لأن أؤكد على هذا ..لا أجد مبررا إذن لمن تعب نفسه بالسخرية من الشيخ بإنشاء صفحة على الفيس بوك لترشيحه لرئاسة مراجيح مولد النبي ..رئاسة مراجيح مولد النبي تحتاج إلى رجل صافي النية وذكي ، وهما صفتان لا تتوفران في الشيخ ؛ فهو يريد أكثر بكثير مما يتكلم ومما يصرح به في دروسه دون أن يدرك أن الأمان الذي كان يوفر له الحماية قد انتهى ..إذا كان هو وأمثاله لن تطالهم أية محاكمة من محاكمات

ما بعد الثورة فإن هذا خطأ من الوارد تصحيحه ..عليهم اللعب فقط الاستمرار في اللعب بأوراق الدستور والطائفية والجماعات التي ستنفجر في وجوههم قبل أي أحد آخر .

وزراء داخلية الثورة

في الوقت الذي أصبحت فيه أخبار)حبيب العادلي (وزير الداخلية السابق خبز السخرية والشماتة اليومي عند المصريين ، وأصبحت حكايات عنبر الحبس الانفرادي الملحق بعنبر 2بسجن مزرعة طره حيث يحبس الآن على ذمة التحقيق كنزا لا يفنى من السعادة والعزاء لهم بدأ يُخلق وزير داخلية جديد مع كل لحظة تمر عقب الإطاحة بمبارك ..أصوات عالية متعجرفة تتقافز على)الفيس بوك (حيث انطلقت الشرارة الأولى للثورة ليتحدث أصحابها بنفس النبرة الأمنية الغليظة التي قهرت المصريين خلال العقود الماضية ، ويستخدمون نفس أسلوب التهديد والترهيب ضد كل من يختلف معهم في الرأي أو يتبنى تصورا مغايرا لما يريدون فرضه بوصفه الأجدر وما يجب تحقيقه خلال مرحلة ما بعد الثورة ..الذي يتحدث بهذه الطريقة لن يجهد نفسه في البحث عن شرعية يستند إليها حيث يؤمن تماما بأنه ليس في حاجة لدعم طالما أنه خرج في المظاهرات واعتصم في ميدان التحرير ولم يرجع إلى بيته حتى ترك مبارك كرسي الرئاسة ..كأنه الوحيد الذي فعل ذلك .. !!كأنه الوحيد الذي حمل كل الأسلحة ، وحارب بمفرده ، وانتصر .. !!ما الذي يميزه وسط الملايين التي شاركت في الثورة ؟ ..هل هي القدرة التي قد لا تتوفر إلا للقليلين بالفعل على استغلال الفوران العاطفي للمصريين بعد نجاح الثورة ؟ ..هل هي القدرة على الاستفادة من الجدل الذي يثار حول الأوضاع السياسية الجديدة ، وتوظيف التعارض بين الرؤى المختلفة لصالح الانحياز الشخصي حتى ولو صدق صاحبه أنه حرص موضوعي على الصالح العام ؟ .

خلال أيام الثورة كان كل شيء مقبولا ويمكن تفهمه :هجوم المتظاهرين والنشطاء على أعداء الثورة من المحرضين والمخونين ومروجي الاشاعات ..لكن أن يمتد ذلك إلى ما بعد الثورة ولا يتم توجيهه ضد من تبقى من مراكز القوى في النظام بقدر ما يتم توجيهه من الثائرين ضد بعضهم فهذا ما يجب الانتباه إليه جيدا ، وإدارك أبعاده ، والإحاطة بكافة أخطاره الممكنة .

شكلت ما تسمى بـ)الثورة المضادة (مناخا خصبا للممارسات الكوميدية لوزراء داخلية الثورة فوق مسرح)الفيس بوك (؛ حيث احتدمت النقاشات الصاخبة بدءا من المصطلح نفسه مرورا بالسيناريوهات المحتملة لها ، وانتهاءا بالنتائج الكارثية الواردة التي تهدد نجاح الثورة ، وما يلزمها من إجراءات استباقية يجب أن تؤخذ حتى تحمي منجزاتها ..على سبيل المثال الخلاف الذي نشأ مع تواصل المظاهرات الفئوية ، والاحتجاجات العمالية ، وإرجاع البعض لها على أنها مظهر من مظاهر الثورة المضادة ، وأن النظام يتولى تحريكها لمقاومة انهياره الكامل رغبة منه في تفجير الفوضى التي قد تستدعي عداء المجلس العسكري الحاكم ، وتورط قيادات الثورة في مواجهته ، في مقابل اعتبار البعض الآخر أن هذه الحركات الاحتجاجية ما هي إلا نتيجة طبيعية للثورة حيث أعطى سقوط رأس النظام دفعة تلقائية هائلة لكل ضحايا الفساد الوظيفي لإسقاط الرووس الصغيرة التابعة له في جميع المؤسسات ..هذا الخلاف اتخذ على صفحات الانترنت مسالك هزلية للغاية استخدمت فيها الشتائم بوفرة ، وكذلك التهديد بالتتبع الإعلامي والتجريح العلني عند الظهور في الفضائيات ، والتحدث في الأمر ، فضلا عن التعليقات المتهكمة التي انتزع صاحبها الحق لنفسه في إطلاقها على الآخرين طالما أنه شارك في الثورة ، ويعرف أن رأيه هو الوحيد الصحيح ، وطالما أن لديه حساب على الفيس بوك ..طالما أنه لا يرى أي علاقة بين السعي لفرض وصاياه)الثورية (الخاصة على ثائرين آخرين ، وبين الابتسامة المنتشية التي تعلو وجهه حينما يقرأ كيف استقبل السجناء)حبيب العادلي (بالغناء اللاذع ، وكيف أجبر على قص شعره ، وارتداء ملابس السجن ، وكيف أصابته حالة من القيء المستمر ، وهو يستقبل خبر إحالته إلى محكمة الجنايات ..كيف يمكن لثورة ناجحة أن تحصن نفسها من داخلها ؟ ..كيف يمكن أن تستوعب الماضي بنفس درجة انتقامها منه ؟ .

مبارك الذي لم يكن يعرف

نفس المبرر الهزلي المتبجح الذي طالما تغنى به الناصريون لتبرير جرائم حقبة زعيمهم أصبح الآن هو نفس المبرر الذي يتغنى به المتحسرون على "الطريقة غير اللائقة "التى اختتم بها "مبارك " حياته كرئيس لمصر ..دائما ما يردد الناصريون أن "جمال عبد الناصر "لم يكن يعلم شيئا عما ارتكبه ضباط الثورة وأتباعهم ضد الشعب المصري ، وبعد ثورة 25يناير جاء اليوم الذي يؤكد فيه الكثيرون أن "مبارك "كان "ضحية "لابنه "جمال "وأتباعه من رجال الأعمال الفاسدين ..لم أنجح أبدا في استيعاب كيف يصدق هؤلاء أنفسهم ، وكيف يؤمنون بقدرة هذا الكلام الغبي على الإقناع ، ودون أي انتباه أو شك في أنه يدين "مبارك "ويثبت ببديهية تامة أنه كان حقا طاغية يجب محاكمته وليس مجرد رئيس تنحى عن الحكم ..كأن من يتبنى هذا المبرر يخبرك ببساطة أن مبارك كان لا يريد أن يعكر أحد مزاجه ، وأنه اختار جزيرة وردية بعيدة ليستمتع بالعيش فيها ، وبما يضمن له أن يظل محميا تماما من سماع صرخات المصريين التي قد تفسد هناء حياته ..كأنه يريد أن يخبرك أن "مبارك "ترك ابنه وحاشيته يقتلون الناس ويسرقونهم ..لماذا تركهم ؟ ..لو كان باختياره فهل هذا هو نموذج الحاكم الأمين الذي يجب أن يبكي عليه أحد ؟ ..ولو كان مجبرا فكيف يمكن لشخص لا يمكنه السيطرة على أسرته أن يتولى مقادير أكثر من 80مليون مصري ؟ ..ماذا عن ثروته ؟ ..هل ترك "جمال "ورجال الأعمال الفاسدين يجمعون له كل هذه المليارات ويكدسون أملاكه ويوسعون استثماراته أم أنه كان يفعل ذلك بنفسه ؟ ..هل قضى ثلاثين سنة لا يشاهد فيها ولو على شاشة التليفزيون أي شيء له علاقة بما وصل إليه حال المصريين من فقر ومهانة أم أنه كان لا يشاهد إلا قنوات الأغاني ؟ ..أليست الحقيقة الواضحة التي لم تكن في حاجة لثورة كي تثبتها أنه كان يعرف كل شيء ، وأنه كان مجرما على استعداد لإبادة شعب بأكمله حتى يبقى في السلطة ؟ ..ألم يكن نموذجا مثاليا للديكتاتور الإله الذي تتوحد شهوته الدموية على نحو راسخ باليقين أنه كامل ومحصن ، وأن بمقدوره أن يفعل ما يشاء مهما كان مستبعدا تماما فكرة أن يتعرض عرشه لتهديد من أي نوع مهما حدث ؟ .

لا يمكن لأحد الادعاء بأن من يفكر ويتحدث بهذه الطريقة هو من أتباع النظام السابق أو من كانوا مستفيدين منه فحسب ، وأيضا ليسوا فقط ممن لم يعانوا من الفقر والبطالة والبطش الأمني مثلما عانى غيرهم ، لكن يمكنك أن تصادف من ينحاز لهذا "الأكلشيه "المبتذل من المعدمين والعاطلين عن العمل وضحايا التعذيب ..ما الذي يفسر ذلك ؟ ..ثمة عاطفة ما ينبغي الإمساك بها وتشريحها جيدا لتحديد المسمى الصحيح لها ..لا يقتصر الأمر عند حد تعاطف الضحية مع الجلاد كما قيل وكُتب كثيرا بقدر خوف الضحية من الوقوع في أسر جلاد آخر مجهول ..غير مجرب وغير مدرك .. الضحية التي تربت واعتادت الانتهاك للدرجة التي أصبح تعريفا لحياتها ومعنى لوجودها ..الخوف من التحرر حيث للسجن حدود مرئية وملموسة صارت بمرور السنوات جزءا من السجين نفسه ؛ أما الحرية فغامضة ومربكة ، وقد يدفعك عدم فهم نواياها إلى الرغبة في استعادة الماضي . !!!

في نفس السياق بات من الواضح أن الشباب الذي قاد ثورة 25يناير بعد ما أسقط النظام وخرج منتصرا من حربه ضد رموزه وأعوانه والمحسوبين عليه والمناصرين له فإنه يواجه في ظني حربا أخرى ربما تكون أخطر ضد الغيرة الشعبية ..الذين يستكثرون على مجموعة من الشباب صغير السن إسقاط واحد من أعتى طغاة التاريخ ..ليسوا من كبار ومتوسطي العمر الذين عجزوا حين كانوا شبابا أن يحققوا هذه المعجزة هم فقط الذين يحملون تلك المشاعر لشباب الثورة ..هناك بالطبع الشباب الآخرين أيضا الذين كانوا يحلمون ويتمنون لو كانوا مكانهم ويراقبون بغيظ المجد الذي أحرزوه والشرف الذي خلد أسمائهم وبالضرورة المستقبل المزدهر الذي ينتظرهم ..كل هؤلاء لا

يتركون فرصة أو مناسبة إلا واستغلوها للتقليل من شأن شباب الثورة والتشكيك في نواياهم وإثارة الريبة حول من يقف وراء إنجازهم العظيم ..كل هؤلاء يقولون بطريقة أو بأخرى أن "مبارك "لم يكن يعرف . !!!

الذي تغير في مصر

الثائر الذي خرج يوم 25يناير 2011لم يوجّه غضبه ضد طاغية ونظام وحزب وحكومة فحسب .. وجهه أولا وقبل أي شيء ضد ذاته التي بدأ تشكيلها في لحظة قديمة ، وتحديدا مع دخول دبابات " الملوك الأحرار "إلى شوارع القاهرة منذ ستين سنة ..الذات التي تربت على التعايش مع الأوهام والأكاذيب ، ودُربت على الخرس والمسالمة والقبول بالأمر الواقع ..التي فهمت الأمان بأنه التآلف مع الموت التدريجي البطيء داخل مدافن القهر ، والتخلي تماما عن فكرة المقاومة خوفا من الخروج إلى حياة أخرى غير معتادة ..التي ربما اعتبرت ثورة 1919مثلا مجرد ماضي سينمائي كوميدي يوثق لمخلوقات خرافية بالأبيض والأسود تُقتل في الشوارع ، وهي تنادي بالحرية والاستقلال .
شهدت مصر في السنوات الأخيرة الكثير من المظاهرات والاعتصامات والوقفات الاحتجاجية ، وبالتوازي شهدت أيضا تساؤلات وإجابات كثيرة حول عدم تحول هذه التحركات إلى ثورة شعبية شاملة ..كان هناك من يرى أن ثمة تمهيدا ما يأخذ كل الوقت الذي يلزمه لهذه الثورة ، وفي المقابل كان هناك الكثيرين من فاقدي الثقة في الفرد المصري ، وفي قدرته على مواجهة القتلة واللصوص الذين مصوا دمائه عبر الزمن ..لكن كان احتمال الثورة واردا ، وكان الإيمان بتحققه خاضعا للمدى المتوفر لدى كل واحد من التفاؤل واليأس ، وبصرف النظر عما يقف وراء تفجر ثورة يناير ـ وهو ما أتصور أن مناقشته لم يحن موعدها بعد ـ فإن الثورة حينما تكون دليلا على انقلاب شخصي وشعبي ، فإنها بالضرورة دليل على تغير تاريخي :لا يمكن تصديق أن هناك ثائرا مصريا سيترك الشارع ، ويعود إلى بيته حتى ولو فعل ذلك جسديا ..لا يمكن تصديق أن هناك ما سيحدث في مصر بعد 25يناير ضد إرادة هؤلاء الناس ، وبما يسبب الألم لأرواح الشهداء ..لا يمكن تصديق أن الملفات القديمة ستنسى ، أو أن كل من يستحق المحاسبة لن يتم القصاص منه أيا يكن ..ثورة 25 يناير أثبتت أن المستقبل ليس لشيوخ عذاب القبر ، ولا للكلاب البوليسية الرابضة على عتبة قصر الرئاسة ، ولا للمقيمين في مراحيض التوك شو الحكومي ..المستقبل للانترنت ، وللميادين ، وللصرخات المتدافعة دون كلل من الصدور المفتوحة .
"الشعب يريد إسقاط النظام" ...هو تحذير بأن كل من سيحاول الاختباء داخل فردوس اللغة سيجرد من ملابسه في ميدان التحرير ، وسينادى اسمه في إذاعة الثورة حيث يخلد في جحيم السماسرة والقوادين الذين يعرفون ما هو الحل!! ..خبراء التبشير السياسي المتنقلين بين الحِجر الأمريكي وحِجر أمن الدولة " ..الشعب يريد إسقاط الرئيس" ...إعصار يدهس الشعارات تحت قطار الوعي الذي لم يعد بمقدور أحد تعطيله: لا يوجد في مصر الأن من لا يعرف جيدا من الذي يريد استغلال الوقت ، وكيف ، ومن الذي يريد تجميع صفوفه مرة أخرى ، والنهوض لاسترداد ما فقد ، والانتقام لإعادة الأمر إلى ما كان عليه...
من سيسمح بهذا بعد 25يناير 2011؟ . !!!